أهل القرى

(من القصص القرآني)

تأليف

إسماعيل مرسي

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين؛ مرسل الأنبياء والمرسلين مبشرين ومنذرين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وخاتم النبيين، المبعوث رحمة للعالمين، وصلاة وسلام على آله وصحبه ومن اهتدى بهديه بإحسان إلى يوم الدين.

مات أبو البشر آدم وعهد لولده من بعده أن يعبدوا الله وحده لا شريك له. فالبشر لم تبدأ رحلتهم الأرضية من كفر كما يصور بعض الفلاسفة والمفكرين أو كما يشاهد الناس في أفلام الغرب، فالإنسان الأول هو آدم؛ وآدم نبي مكلم؛ أهبطه الله تعالى وزوجه حواء من الجنة في السماء إلى كوكب الأرض وهما يعلمان كل ما يحتاجان إليه من معارف روحية وأرضية؛ معارف روحية: فالإنسان يعرف ربه ويعرف ماذا يريد منه ربه؛ وما هو مبدأه وأين منتهاه. ومعارف أرضية: فالإنسان يعرف ما يأكله فينفعه؛ ويعرف ما لا يأكله فيضره إلى آخر ذلك مما يحتاج معرفته ليعيش في الأرض ويعمرها.

وبوصية أبو البشر آدم لبنيه عاشت البشرية حينا كبيرا من الدهر يعرفون ربهم ويعبدونه وحده ولا يشركون به شيئا. ولكن رويدا رويدا بدأ الناس ينسون ما عهد إليهم ربهم من خلال نبيهم الأول آدم أبو الصنف البشري، ودخل عليهم عدوهم الأزلي وعدو أبيهم إبليس بغوايته وإضلاله فهداهم إلى صراط الجحيم وأبعدهم عن ربهم ووسوس لهم بعبادة غيره من خلقه: {تَاللّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُم}**النحل63**.

في أول الأمر زين لهم الشيطان أن يتخذوا من الأحجار تماثيل لصالحين كانوا فيهم من قبل ليتذكروهم وليكونوا لهم مثالا وقدوة في عبادة الله، وجيلا من بعد جيل نسى الناس الحكمة التي من أجلها صنعت تلك التماثيل؛ ونشأت أجيالا جديدة وقد وجدوا آبائهم يقدسون تلك الأصنام تقديسا عظيما فظنوا أن تلك الأصنام هي واسطتهم إلى رب العباد: {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى}**الزمر3**. حتى وسوس لهم الشيطان أن هذه الأصنام هي آلهتهم التي خلقتهم وخلقت كل شيء؛ وأن هي ما كان يعبد آباؤهم وأجدادهم فعبدوها من دون الله. لذا كانت الحاجة ملحة لأن يرسل الله من الناس رسلا ونبيين يدعون الناس إلى عبادة الواحد الأحد، وينذرون آلهتهم الباطلة المزعومة التي هي عباد لله، ويذكرهم بربهم. كذلك كي لا يكون للناس حجة في عبادة غير الله بعد الرسل؛ أو كما **قال تعالى:** {رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ} **النساء165**. فلو أهلك الله الناس بدون رسول يبلغهم رسالات ربهم وينذرهم بعذابه لقالوا: لولا

أرسلت لنا يارب رسول؛ لكنا من المؤمنين لك والمتبعين لشريعتك ودينك: {وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى}**طه134.**

فأرسل الله تعالى إلى عباده الرسل تترا؛ أي بعضهم يتبع بعض؛ وكانوا كلما بعث الله إليهم من رسول كذبوه فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر: {ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاء أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضاً وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْداً لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُون} **المؤمنون44.** أهلكهم الله تعالى بذنوبهم وكفرهم وصدهم عن سبيل الله تعالى، وذكر لنا سبحانه وتعالى في كتابه الأخير إلى البشرية -القرآن- من أخبارهم ما يحذرنا به من السير على دربهم في الغي والضلال وإلا فلن يختلف مصيرنا كثيرا عن مصيرهم. فهذه القصص ليست للتسلية ولا للسمر؛ بل هي للإتعاظ وأخذ العبر.

وقد نعلم أن أكثر مصادرنا عن قصص الأنبياء مستمدة من الإسرائيليات؛ وعليه نعمل فيها القواعد الإسلامية في روايات بني إسرائيل؛ فما وافق الإسلام أخذنا به؛ وما عارضه ضربنا به عرض الحائط؛ وما لم يتناوله الإسلام توقفنا في إثبات صحته أو نفيه.

وتعالى قارئي الكريم لنتعرف عن كثب على هؤلاء الذين سماهم الله تعالى في كتابه أهل القرى، والله من وراء القصد؛ هو نعم المولى ونعم النصير.

الكاتب

إسماعيل مرسي

نـوح وقـومه

كان أول أهل القرى المذكورين في كتاب الله؛ هم قوم نوح عليه السلام أو بنو راسب كما أطلق عليهم بعض المؤرخين؛ أو بيوراسب الذي تسميه العرب الضحاك. وجميع أهل الأخبار والعجم تزعم أن بيوراسب هذا قد ملك الأقاليم كلها، وأنه كان ساحرا فاجرا. وبلغنا أن الضحاك هو نمرود، وأن ابراهيم خليل الرحمن صلى الله عليه وسلم ولد في زمانه، وأنه صاحبه الذي أراد إحراقه.[1] وإن كان هذا خبرا دون دليل يؤكده، وإنما ذكرنا خبر بيوراسب ههنا لأن بعضهم يزعم أن نوحا كان في زمانه وإنما أرسل إليه وإلى أهل مملكته. **وقيل:** إنه هو الذي بنى مدينة بابل ومدينة صور ومدينة دمشق.[2] على العموم تعالوا نتعرف أكثر إلى نبي الله نوح وقومه اللذين هم أول أهل القرى.

نوح هو: نوح بن لامك بن متُّوشلخ بن خنوخ -وهو إدريس- بن يرد بن مهلاييل بن قينن بن أنُوش بن شيث بن آدم أبى البشر عليه السلام.[3] **وكان لنوح أربعة أولاد مشهورين هم:** حام وسام ويافث وهام أو يام أو كنعان كما عند أهل الكتاب الذي هلك في الطوفان؛ **فعن ابن عباس؛ قال:** ولد لنوح سام؛ وفي ولده بياض وأُدمة، وحام وفي ولده سواد وبياض قليل. ويافث وفيهم الشُقرة والحُمرة، وكنعان وهو الذي غرق، والعرب تسميه يام.[4]

ديانة قوم نوح:

اختلف العلماء في ديانة القوم الذين أرسل إليهم نوح؛

منهم من قال: إنهم كانوا قد أجمعوا على العمل بما يكرهه الله تعالى من ركوب الفواحش والكفر وشرب الخمور والاشتغال بالملاهي عن طاعة الله. **ومنهم من قال:** إنهم كانوا أهل طاعة وبيوراسب أول من أظهر القول بمذهب الصابئين وتبعه على ذلك الذين أرسل إليهم نوح.. وأما كتاب الله تعالى؛ فينطق بأنهم أهل أوثان؛ **قال تعالى:** {وقالوا لا تذرُن آلهتكم ولا تذرُن وُدا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا}**نوح23-24. قال ابن الأثير:** لا تناقض بين هذه الأقاويل الثلاثة فإن القول الحق الذي لا يشك فيه هو أنهم كانوا أهل أوثان يعبدونها كما نطق به القرآن وهو مذهب طائفة

==

1: الطبري- 196/1

2: ابن الأثير- 61/1

3: ابن كثير- 237/1

4: الطبري- 191/1

من الصابئين، فإن أصل مذهب الصابئين عبادة الروحانيين وهم الملائكة لتقربهم إلى الله تعالى زلفى.[1] **جاء في الطبري:** كان نوح في عهد بيوراسب؛ وكان قومه يعبدون الأصنام، فدعاهم إلى الله عز وجل تسعمائة وستة وخمسين سنة، كلما مضى قرن تبعهم قرن، على ملة واحدة من الكفر، حتى أنزل الله عليهم العذاب فأفناهم.[2]

إذا فأساس فساد قوم نوح هو عبادة الأصنام: وعليه يكون ودا وسُواع ويعوق ونسرا. المذكورة في **قوله تعالى:** {وقالوا لا تذرن ءالهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا}**نوح23**. وهي أسماء رجال صالحين من قوم كانوا قبل زمن نوح بزمن وليسوا من قوم نوح أنفسهم؛ **عن عروة بن الزبير**؛ **أنه قال:** ودّ ويغوث ويعوق وسواع ونسر أولاد آدم، وكان ود أكبرهم وأبرهم به.[3]

وقيل عنهم أيضا: كانوا قوما صالحين بين آدم ونوح، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم. فصوّروهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس؛ فقال: إنما كانوا يعبدونهم، وبهم يسقون المطر. فعبدوهم. **وعن أبي المطهر؛ قال:** ذكروا عند أبي جعفر الباقر؛ وهو قائم يصلي؛ يزيد بن المُهلب؛ قال: فلما انفتل من صلاته؛ قال: ذكرتم يزيد بن المهلب، أما إنه قتل في أول أرض عبد فيها غير الله. قال: ذكر ودا، رجلا مسلما، وكان محببا في قومه، فلما مات عسكروا حول قبره في أرض بابل وجزعوا عليه، فلما رأى إبليس جزعهم عليه تشبه في صورة إنسان، ثم قال: إني أرى جزعكم على هذا الرجل، فهل لكم أن أصور لكم مثله، فيكون في ناديكم فتذكرونه؟ قالوا: نعم. فصور لهم مثله. قال: ووضعوه في ناديهم وجعلوا يذكرونه، فلما رأى ما بهم من ذكره، قال: هل لكم أن أجعل في منزل كل واحد منكم تمثالا مثله، ليكون له في بيته فتذكرونه؟ قالوا: نعم. قال: فمثل لكل أهل بيت تمثالا مثله، فأقبلوا فجعلوا يذكرونه به. **قال:** وأدرك أبناؤهم فجعلوا يرون ما يصنعون به. **قال:** وتناسلوا، ودس أمر ذكرهم إياه، حتى اتخذوه إلها يعبدونه من دون الله أولاد أولادهم، فكان أول ما عُبد غير الله ود الصنم الذي سموه ودّا.[4]

==

1: ابن الأثير- 54/1

2: الطبري- 174/1

3: ابن كثير- 249/1

4: نفسه

الزمن بين آدم ونوح:

أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الفترة الزمنية ما بين زمن آدم وزمن نوح وحددها تحديدا؛ فقال عليه السلام: كان آدم نبيا مكلما؛ كان بينه وبين نوح عشرة قرون؛ وكانت الرسل ثلاثمائة وخمسة عشر.[1] وعليه يكون ما بين آدم ونوح ألف سنة على من يقصد بالقرن المائة عام؛ أو بين آدم ونوح ألوف السنين على من يقصد بالقرن الجيل من الناس؛ كما في **قوله تعالى:** {وكما أهلكنا من القرون من بعد نوح} **الإسراء 17. وكقوله عليه السلام:** خير القرون قرني. فقد كان الجيل قبل نوح يعمرون الدهور الطويلة.

عمر نوح وقت أن بُعث:

دعى نوح قومه لأكثر من تسعمائة عام: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ} **العنكبوت14.** وتفصيل التسعمائة وخمسين عاما التي عاشها نبي الله نوح هي؛ **عن ابن عباس؛ قال:** ولد متوشلخُ لمك -أو لامك والد نوح- ونفرا معه، وإليه الوصية، فولد لمكُ نوحا، وكان للمك يوم ولد نوح اثنتان وثمانون سنة، ولم يكن أحد في ذلك الزمان ينهي عن منكر، فبعث الله إليهم نوحا، وهو ابن أربعمائة سنة وثمانين سنة، ثم دعاهم في نبوته مائة وعشرين سنة، ثم أمره بصنعه السفينة فصنعها وركبها وهو ابن ستمائة سنة، وغرق من غرق، ثم مكث بعد السفينة ثلاثمائة وخمسين سنة.[2]

وعلى هذه الرواية يكون عمر نوح وقت بعث إليه أربعمائة وثمانين سنة، **وقيل:** أن عمره وقت بعث كان ابن خمسين سنة.[3] **وقيل:** إن الله تبارك وتعالى أرسل نوحا إلى قومه وهو ابن خمسين وثلاثمائة سنة، فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما، ثم عاش بعد ذلك خمسين وثلاثمائة سنة.[4]

==

1: خرجه الألباني في السلسة الصحيحة- 385/6

2: الطبري- 174/1

3: ذكره ابن الأثير في كامله- 55/1

4: الطبري- 179/1

نوح هو أول نبي مرسل:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أول نبي أرسل نوح.[1] **ولما** بعث الله نوحا دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وأن لا يعبدوا معه صنما ولا تمثالا ولا طاغوتا؛ وأن يقروا بوحدانية الله الذي لا إله غيره؛ فعاندوه وآذوه ورفضوا دعوته.

تعب نوح كثيراً في دعوتهم إلى الله؛ فضاقوا به وبدعوته: {قَالُواْ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتَنِا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ}**هود32.** وتمسكوا بعبادة الحجر من دون رب البشر: {وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرا} **نوح23.** وقال له قومه أيضا: {إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ}**الأعراف60.** فرد عليهم نبي الله نوح ناصحا: {قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ. أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ. أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُون} **الأعراف61-63.** **قال ابن إسحاق وغيره:** إن قوم نوح كانوا يبطشون به فيخنقونه حتى يغشى عليه؛ فإذا أفاق؛ قال: اللهم اغفر لي ولقومي فإنهم لا يعلمون؛ حتى إذا تمادوا في معصيتهم وعظمت منهم الخطيئة، وتطاول عليه وعليهم الشأن اشتد عليه البلاء، وانتظر النجل بعد النجل فلا يأتي قرن إلا كان أخبث من الذي كان قبله حتى إذا كان الآخر ليقول: قد كان هذا مع آبائنا وأجدادنا مجنونا لا يقبلون منه شيئا؛ وكان يُضرب ويُلف ويُلقى في بيته يرون أنه قد مات؛ فإذا أفاق اغتسل وخرج إليهم يدعوهم إلى الله. فلما طال ذلك عليه ورأى الأولاد شرا من الآباء؛ قال: رب قد ترى ما يفعل بي عبادك فإن تك لك فيهم حاجة فاهدهم؛ وإن يك غير ذلك فصبرني إلى أن تحكم فيهم؛ فأوحى الله إليه: {أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ}**هود36.** فلما يئس من إيمانهم دعا عليهم؛ **فقال:** {رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً. إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّارا} **نوح26-27.** إلى آخر القصة.[2] فتوارث قوم نوح الكفر والعناد جيلا من بعد جيل؛ فكان الولد إذا بلغ ولدُه وعقل عنه كلامه، وصّاه فيما بينه وبينه أن لا يُؤمن بنوح أبدا ما عاش، ودائما ما بقى.[3] فاجتمع عليهم خطاياهم؛ من كفرهم وفجورهم؛ ودعوة نبيهم عليهم؛ فعند ذلك استجاب له ربه وأمره ببناء السفينة العظيمة التي سيحمل فيها من كل المخلوقات زوجين لأنه سبحانه وتعالى

==

1: خرجه السيوطي عن أنس وصححه الألباني

2: ابن الأثير- 55/1

3: ابن كثير- 255/1

سيفيض على الأرض بماء عظيم فيغرق كل من على ظهرها من المخلوقات التي تتنفس الهواء: {وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ. وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ. فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيم} **هود37-39.**

مازالوا يسخرون من نبي الله نوح وهم قد كتب عليهم الهلاك هم وأولادهم وأموالهم وكل شيء يملكونه: {زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ اتَّقَواْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَة} **البقرة212.**

كانوا يسخرون منه لأشياء كثيرة منها: أنهم لا يعرفون ما هذا الشيء الذي يبنيه نوح وقومه الذين آمنوا به! فهم ولا غيرهم من أهل الأرض لا يعرفون ما هي السفينة، ولما عرفوا أنها وسيلة لركوب الماء زادت سخريتهم فهم لا يسكنون في مجتمع فيه ماء! وكانوا يقولون له: يا نوح! قد صرت نجارا بعد النبوة؟! وقد أعقم الله أرحام النساء فلا يولد لهم.

قال بعض علماء السلف: لما استجاب الله له أمره أن يغرس شجرا ليعمل منه السفينة، فغرست وانتظره مائة سنة، ثم نجره في مائة أخرى، وقيل: في أربعين سنة. فالله أعلم.[(1)]

إذا فار التنور:

قد أعطى الله سبحانه وتعالى لنبيه نوح على علامة منها سيعرف موعد العذاب والغرق الذي كتب على قومه وهذه العلامة هي أن يخرج الماء من أفران القوم: {حَتَّى إِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيل} **هود41.** إلا من سبق عليه القول منهم. أي: إلا من كان كافرا، فإنه قد نفذت فيه الدعوة التي لا ترد، ووجب عليه حلول البأس الذي لا يرد.

وقيل في التنور أو الفرن أنه تنور مخصوص؛ **قيل:** كان من حجارة كان لحواء ثم كان لنوح. **وقال ابن عباس:** كان ذلك تنورا من أرض الهند. **وقال مجاهد والشعبي:** كان التنور بأرض الكوفة وأخبرته زوجته بفوران الماء في التنور وأمر الله جبرائيل فرفع الكعبة إلى السماء الرابعة وكانت من ياقوت الجنة وخبأ الحجر الأسود بجبل أبي قبيس فبقى فيه إلى أن بنى إبراهيم البيت فأخذه فجعله موضعه.[(2)]

==

1: ابن كثير- 258/1

2: ابن الأثير- 56/1

ويروى عن ابن عباس: أن أول ما دخل من الطيور الدُّرّة (نوع من الببغاوات) وآخر ما دخل من الحيوانات الحمار، ودخل إبليس متعلقا بذنب الحمار.[1]

كيف هي السفينة؟

أما عن مواصفات تلك السفينة العظيمة والتي هي أول سفينة صنعت في التاريخ والعالم: فقد ذكر فيها كانت السفينة من خشب الساج. **وقيل:** من الصنوبر. وهو نص التوراة؛ **جاء في سفر التكوين الأصحاح14/6، وفيها:** من خشب جُفر. والجُفر هو الصنوبر. **وقال سفيان الثوري:** وأمره أن يجعل طولها ثمانين ذراعا وعرضها خمسين ذراعا، وأن يطلي ظاهرها وباطنها بالقار، وأن يجعل لها جؤجُؤا أزور (أي صدرا مائلا يقصد صدر السفينة) يُشق الماء.[2]

وقال قتادة: كان طولها ثلثمائة ذراع وعرضها خمسين ذراعا وطولها في السماء (ارتفاعها) ثلاثين ذراعا. **وقال الحسن:** كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع وعرضها ستمائة ذراع والله أعلم. وأمر نوحا أن يجعله ثلاث طبقات: سفلى ووسطى وعليا. ففعل نوح كما أمره الله تعالى.[3]

فالسفلى للدواب والوحوش، والوسطى للناس، والعليا للطيور، وكان بابُها في عرضها، ولها غطاء من فوقها مطبق عليها.[4] أي إنها إلى الغواصة أقرب من السفينة.

وعند ابن الأثير: جعل نوح الطير في الطابق الأسفل من السفينة، وجعل الوحش في الطابق الأوسط، وركب هو ومن معه من بني آدم في الطابق الأعلى.[5]

وقد استخدموا في تلك السفينة المسامير **لقوله تعالى:** وحملناه على ذات ألواح ودُسُر.**القمر13. والدسر:** المسامير.

==

1: ابن كثير- 260/1

2: ابن كثير- 258/1

3: ابن الأثير- 56/1

4: ابن كثير- 259/1

5: ابن الأثير- 57/1

من كان مع نوح على السفينة من البشر؟

قلنا أن الله تعالى أمر نوح أن يحمل معه من كل الدواب زوجين؛ وأخبره أن يحمل معه من آمن من أهله وغيرهم؛ **فقيل:** حمل فيه بنيه الثلاثة: سام وحام ويافث ونساءهم، وستة أناس ممن كان آمن به فكانوا عشرة نفر.. وتخلف عنه ابنه يام وكان كافرا.[1]

وقال ابن عباس: كان في السفينة ثمانون رجلا أحدهم جرهم كلهم بنو شيث. **وقال قتادة:** كانوا ثمانية أنفس نوح وامرأته وثلاثة بنوه ونساؤهم. **وقال الأعمش:** كانوا سبعة ولم يذكر فيهم زوج نوح وحمل معه جسد آدم، ثم أدخل ما أمر الله به من الدواب؛ وتخلف عنه ابنه يام وكان كافرا.[2] **وعن كعب الأحبار:** كانوا اثنين وسبعين نفسا. **وقيل:** كانوا عشرة. **وقيل:** إنما كانوا نوحا وبنيه الثلاثة وكنائنه (زوجات الإبن أو الأخ) الأربع، بامرأة يام الذي انخزل وانعزل وسلك غير طريق النجاة..[3]

ومع اعتراضنا على كل تلك الأعداد المذكورة؛ فسفينة بكل هذا الحجم تتسع للمئات بل وعشرات المئات من البشر؛ وهؤلاء كانوا كل سكان الأرض وقتئذ ومن بعد الطوفان كانت كل البشرية. فإن اعترض معترض **بقوله تعالى:** وما آمن معه إلا قليل. فنقول القليل يكون باعتبار العدد الأصلي المنسوب إليه؛ ولا نعلم على وجه اليقين عدد قوم نوح وهم كل سكان العالم آنذاك؛ فمثلا إذا كانوا مائة ألف فالألف قليل وهكذا. **قال الإمام مالك؛ عن يزيد بن أسلم:** كان أهل ذلك الزمان قد ملئوا السهل والجبل. **وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم:** لم تكن بقعة في الأرض إلا ولها مالك وحائز. رواهما ابن أبي حاتم.[4]

نوح و ابنه:

على آية حال وفي أثناء ما كانت السفينة تحمل الناجين من أهل الأرض من هذا الطوفان العظيم تحدث تلك القصة التي تضرب لنا أعظم عبرة، قصة النبي الناجي وابنه الكافر الهالك؛ حيث يرى نبي الله نوح ابنه الكافر وهو على ظهر السفينة فيدعوه إليه: {وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِين}**هود42.** ولكن غلبت على

==

1: الطبري- 183/1

2: ابن الأثير- 56/1

3: ابن كثير- 261/1-262

4: ابن كثير- 264/1

الفتى شقوته وعاند؛ فرد نداء أبيه المحب: {قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء}**هود43.** فأشفق الأب على إبنه فناداه النداء الأخير؛ ولكن هيهات: {قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ}**هود43.** وهذا الابن هو هام أو يام أخو سام وحام ويافث، **وقيل:** اسمه كنعان. وأراد نبي الله نوح أن يدعو الله أن يغفر لولده فعاتبه الله وأمره أن لا يدعوه من أهله فالرحم الباقي هو رحم الإخوة في الله وليس بين المؤمنين والكافرين رحما: {وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابُنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ.قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ.قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِين}**هود45-47.**
كلنا يحاسبنا الله تعالى على أفعالنا فقط، ولا يشفع لنا آبائنا ولا أولادنا إذ كفرنا بربنا حتى لو كانوا أنبياء وهاهو ولد نبي الله نوح لم تمنعه نبوة والده من الله فكان من المغرقين.

دفاعا عن نوح:

الاتهام: قال بعض من طعن في نبي الله نوح أن الله تعالى غضب عندما سأله أن ينجي ابنه وقت الطوفان وكيف أن الله تعالى وعظه أن يكون من الجاهلين؛ **أو كما قال تعالى:** {فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِين}**هود46.**
وما ذكره هؤلاء الطاعنون لا حجة لهم فيه؛ لأن الله تعالى قد وعد نبيه نوح أن ينجيه وأن يخلصه هو وأهله من الغرق والهلاك؛ **وذلك لما قال الله تعالى له:** {حَتَّى إِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْل}**هود40.** وعليه فقد ظن نوح أن ابنه يقع ضمن هذا الوعد على ظاهر القرابة والدم: {وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابُنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَق}**هود45.** فرد عليه الله تعالى ظنه هذا: {قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ }**هود46.** قال الله تعالى: يا نوح إن ابنك هذا الذي كفر ليس من أهلك الذين وعدتك أن أنجيهم، وذلك بسبب كفره وعمله عملا غير صالح؛ وإني أنهاك أن تسألني أمرًا لا علم لك به؛ إني أعظك لئلا تكون من الجاهلين في مسألتك إياي عن ذلك.. ولم يسأل نبي الله نوح تخليص وتنجية من أيقن أنه ليس من أهله فتفرع على هذا النهي المذكور في الآية عن أن يكون من الجاهلين فتندّم عليه السلام من ذلك وتراجع وليس هاهنا معصية قد وقعت..

وبدأ الطوفان:

أمر الله السماء أن تمطر فانهمرت عليهم بمطر هائل، وأمر الأرض أن تخرج مابها من ماء فكان الطوفان الذي أغرق كل مخلوق صادفه في طريقه. ودخل نوح ومن معه الفلك وغطاه عليه وعلى من معه بطبقة، فكان بين أن أرسل الله الماء وبين أن احتمل الماء الفلك أربعون يوما وأربعون ليلة ثم احتمل الماء كما يزعم أهل التوراة، وكثر واشتد وارتفع.[1]

قال جماعة من المفسرين: ارتفع الماء على أعلى جبل بالأرض خمسة عشر ذراعا. وهو الذي عند أهل الكتاب. **وقيل:** ثمانين ذراعا. وعم جميع الأرض؛ طولها والعرض، سهلها وحزنها، وجبالها، وقفارها ورمالها، ولم يبق علي وجه الأرض ممن كان بها من الأحياء عين تطرف، ولا صغير ولا كبير.[2]

وانتهى الأمر وقبض الله أرواح كل الكفار من بني آدم فلم تزل منهم نفس ترزق على وجه الأرض، فأمر الله سبحانه وتعالى السماء أن تمسك مطرها وأمر الأرض أن تبتلع مائها ونقص الماء واستوت السفينة على جبل الجودي وهو جبل بأرض الجزيرة مشهور.[3] بقرب الموصل: {وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِين} **هود44.** فكان بين أن أرسل الله الطوفان وبين أن غاض الماء ستة أشهر وعشر ليال.

وعن ابن عباس: أرسل الله المطر أربعين يوما وأربعين ليلة، فأقبلت الوحوش حين أصابها المطر والدواب والطير كلها إلى نوح، وسُخرت له، فحمل منها كما أمره الله عز وجل: من كل زوجين اثنين. وحمل معه جسد آدم، فجعله حاجزا بين النساء والرجال، فركبوا فيها لعشر ليال مضين من رجب، وخرجوا منها يوم عاشوراء من المحرم، فلذلك صام من صام يوم عاشوراء، وأُخرج الماء نصفين، فذلك قول الله عز وجل: ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر. يقول: منصب. وفجرنا الأرض عيونا. يقول: شققنا الأرض. فالتقى الماء على أمر قد قدر. فصار الماء نصفين: نصف من السماء ونصف من الأرض، وارتفع الماء على أطول جبل في الأرض خمسة عشر ذراعا، فسارت بهم السفينة، فطافت بهم الأرض كلها في ستة أشهر لا تستقر على شيء، حتى أتت الحرم فلم تدخله، ودارت بالحرم أسبوعا، ورفع البيت الذي بناه آدم عليه السلام، رفع من الغرق -وهو البيت

==

1: الطبري- 184/1

2: ابن كثير- 263/1-264

3: ابن كثير- 268/1

المعمور والحجر الأسود- على أبي قبيس. فلما دارت بالحرم ذهبت في الأرض تسير بهم، حتى انتهت إلى الجودي -وهو جبل بالحضيض من أرض الموصل- فاستقرت بعد ستة أشهر لتمام السبع، فقيل بعد السبعة الأشهر: بعدا للقوم الظالمين. فلما استقرت على الجودي قيل يا أرض ابلعي ماءك. يقول: أنشفي ماءك الذي خرج منك. ويا سماء أقلعي. يقول: احبسي ماءك. وغيض الماء. نشفته الأرض، فصار ما نزل من السماء هذه البحور التي ترون في الأرض، فآخر ما بقى من الطوفان في الأرض ماء بحسمي -منطقة من الأرض- بقى في الأرض أربعين سنة بعد الطوفان ثم ذهب.[1]

ونعترض فقط مما سبق على إن الماء الذي في البحار والمحيطات هو ما تبقى من الطوفان؛ وهو خطأ علمي لا يقول به أحد؛ فكل البحار والمحيطات مخلوقة قبل خلق الإنسان والطوفان.

وبارك الله على نوح ومن معه من المؤمنين الناجين: {قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلاَمٍ مِّنَّا وَبَركَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيم} **هود48.** والبركة هي النماء في الخير والزيادة الغير محسوسة ولا مدركة في الأشياء؛ وفيما ذكر أهل الكتاب، أن الله كلم نوحا قائلا له: اخرج من الفلك أنت وامرأتك وبنوك ونساء بنيك معك، وجميع الدواب التي معك ولتنموا ولتكثروا في الأرض.. وجعل تذكار الميثاق إليه القوس الذي في الغمام، وهو قوس قزح الذي قدمنا عن ابن عباس، أنه: أمان من الغرق. **قال بعضهم:** فيه إشارة إلى أنه قوس بلا وتر.[2]

وروى ابن كثير: إنهم كانوا في السفينة مائة وخمسين يوما، وإن الله وجه السفينة إلى مكة فدارت بالبيت أربعين يوما، ثم وجهها إلى الجودي فاستقرت عليه، فبعث نوح عليه السلام الغراب ليأتيه بخبر الارض، فذهب فوقع على الجيف فأبطأ عليه، فبعث الحمامة فأتته بورق الزيتون ولطخت رجلها بالطين، فعرف نوح أن الماء قد نضب، فهبط إلى أسفل الجودى فابتنى قرية وسماها ثمانين، فأصبحوا ذات يوم وقد تبلبلت ألسنتهم على ثمانين لغة، إحداها العربية. وكان بعضهم لا يفقه كلام بعض، فكان نوح عليه السلام يعبر عنهم.[3]

==

1: الطبري- 185/1

2: ابن كثير- 275/1

3: ابن كثير- 272/1

عمر نوح الحقيقي:

اشتهر عند الناس أن نبي الله نوح عليه الصلاة والسلام قد كان عمره ما يقرب من الألف عام وذلك لأن الله تعالى أخبرنا أنه لبث في قومه يدعوهم تسعمائة وخمسون سنة ولكن إذا ما أضفنا عمره قبل بعثه بالنبوة وعمره بعد الفيضان إلى تلكم التسعماية والخمسون سنة لوجدنا أن نوح قد فاق عمره الألف سنة المذكورة والمعروفة لدى الكثير من الناس. **قال ابن كثير:** فإن القرآن يقتضي أن نوحا مكث في قومه بعد البعثة وقبل الطوفان ألف سنة إلا خمسين عاما فأخذهم الطوفان وهم ظالمون. ثم الله أعلم كم عاش بعد ذلك؟ فإن كان ما ذكر محفوظا عن ابن عباس - من أنه بعث وله أربعمائة وثمانون سنة، وأنه عاش بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة- فيكون قد عاش على هذا ألف سنة وسبعمائة وثمانين سنة.[1]

وجاء في الطبري عن عون بن أبي شداد؛ قال: عاش –يعني نوحا- بعد ذلك –يعني بعد الألف سنة إلا خمسين عاما التي لبثها في قومه- ثلاثمائة وخمسين سنة.. **وأما ابن إسحاق؛ عن سلمة؛ قال:** وعمر نوح –فيما يزعم أهل التوراة- بعد أن أهبط من الفلك ثلاثمائة سنة وثمانيا وأربعين سنة، قال: فكان جميع عمر نوح ألف سنة إلا خمسين عاما، ثم قبضه الله عز وجل إليه.[2]

ما المقصود بذرية من حملنا مع نوح؟

قيل: أنما الذين كانوا معه في الفلك قوم كانوا آمنوا به واتبعوه، غير أنهم بادوا وهلكوا، فلم يبق لهم عقب، وإنما الذين هم اليوم في الدنيا من بني آدم ولد نوح وذريته دون سائر ولد آدم، كما **قال الله عز وجل:** وجعلنا ذريته هم الباقين.[3] **وروي عن سمرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله:** في قوله الله: وجعلنا ذريته هم الباقين. قال: حام وسام ويافث.[4] **وعن سعيد بن المسيب؛ أنه قال:** ولد نوح ثلاثة: سام ويافث وحام، وولد كل واحد من هؤلاء ثلاثة: فولد سام العرب وفارس والروم، وولد يافث الترك والصقالبة ويأجوج ومأجوج، وولد حام القبط والسودان والبربر.[5] **وقيل:** إن نوحا عليه السلام لم يولد له هؤلاء الثلاثة الأولاد إلا بعد الطوفان، وإنما ولد

==

1: ابن كثير- 291/1

2: الطبري- 191/1

3: الطبري- 192/1 و ابن كثير- 268/1

4: خرجه الترمذي عن سمرة في جامعه- 165/5. وقال: هذا حديث حسن غريب- وقال الألباني: حديث ضعيف.

5: ابن كثير- 269/1

له قبل السفينة كنعان الذي غرق، وعابرُ مات قبل الطوفان. والصحيح: أن أولاده الثلاثة كانوا معه في السفينة، هم ونساؤهم وأمهم، وهو نص التوراة سفر التكوين: الأصحاح6/7. **وقيل:** إنما كان السودان في نسل حام لأن نوحا نام فانكشفت سوأته فرآها حام فلم يغطها، ورآها سام ويافث فألقيا عليه ثوبا؛ فلما استيقظ علم ما صنع حام وإخوته فدعا عليهم.[1]

وهذه الرواية وإن كانت مشهورة في كل كتب المؤرخين إلا إننا لا نقبلها سندا ولا متنا؛ فعقاب الأبناء بذنوب الآباء هي الفكرة الغالبة على فكر اليهود والنصاري المنحرفين؛ فالبشرية عند النصارى تعاقب لخطيئة أبوهم آدم وأكله من الشجرة المحرمة؛ وعند اليهود والنصاري أبناء حام معاقبين لخطيئة أبوهم حام وهكذا؛ وكل هذا عندنا في دين الله وشرع الله مرفوض جملة وموضوعا؛ فحتى لو دعا نوح عليه السلام علي ولده حام فتكون الدعوة على حام وحده دون ذريته! فما ذنبهم؛ **والله تعالى يقول ويؤكد:** أن لا تزر وازرة وزر أخرى. **ويؤكد:** أن ليس للإنسان إلا ما سعى. فليس من العدل معاقبة الأبناء على خطأ الآباء. ولهذا نرد كل هذه الروايات.

قبره عليه السلام:

قيل: قبر نوح عليه السلام بالمسجد الحرام. وهذا أقوى وأثبت من الذي يذكره كثير من المتأخرين من أنه ببلدة بالبقاع. تعرف اليوم بكرك نوح، وهناك جامع قد بني بسبب ذلك، وأوقفت عليه أوقاف فيما ذكر. والله أعلم بالصواب.[2]

وقد أنكرت طائفة من جهلة الفرس وأهل الهند وقوع الطوفان، واعترف به آخرون منهم، وقالوا: إنما كان بأرض بابل، ولم يصل إلينا.. وقد أجمع أهل الأديان؛ الناقلون عن رسل الرحمن، مع ما تواتر عند الناس في سائر الأزمان على وقوع الطوفان وأنه عم جميع البلاد، ولم يبق الله أحدا من كفرة العباد؛ استجابة لدعوة نبيه المؤيد المعصوم، وتنفيذا لما سبق في القدر المحتوم.[3]

==

1: ابن الأثير- 61/1

2: ابن كثير- 281/1

3: ابن كثير- 275/1

كيف وصل الإنسان إلى قارات العالم الجديد؟

السؤال الذي كان يحيرني كثيرا من قبل كان هو: كيف وصل الإنسان القديم إلي شواطيء القارات المتباعدة التي يفصلها المحيطات الشاسعة والبحار عن بعضها البعض؟! فلو قلنا مثلاً أن الله خلق آدم في قارة أفريقيا أو آسيا فكيف وصل الإنسان إلى الأمريكتين أو إلى القارة الاسترالية؟ نعم، ولهذا قلت لابد من سفينة في قديم الزمان قد حملت جذور هذه الأجناس إليها وإلا كيف وصلوا إلى هناك فعمروا تلك البقاع من الأرض؟ ولماذا لا تكون هي سفينة نبي الله نوح وأنه قبل أن ترسو السفينة على جبل الجودي في قارة آسيا قد أمر الله نبيه نوح أن ينزل ممن معه على سطح السفينة أفواجا معينة بصفاتهم رجالا ونساءا فوق كل قارة قابلتهم أثناء طفوهم على سطح الماء قبل أن يذهب الماء وتجف اليابسة تماما، وكانت تلك الأفواج هي البذور التي تكونت منها تلك الأمم سكان الأمريكتين والقارة الأسترالية ومن هنا أيضا كان اختلاف اللغات والأشكال حسب مناخ وطقس وظروف الحياة فوق كل قارة من تلك القارات؟ موضوع جدير بالتفكير العميق والبحث والدراسة، أليس كذلك؟

على أية حال فقد نجى الله عبده ونبيه نوح ومن معه وهم قليل وصدق في الكثير من بني آدم وعد إبليس: {وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِين}**سبأ20.**

وصية نوح لولده:

لما حضرت نوحا الوفاة؛ قيل له: كيف رأيت الدنيا؟ قال: كبيت له بابان دخلت من أحدهما وخرجت من الآخر. وأوصى إلى ابنه سام وكان أكبر ولدة.[1] **قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:** إن نبي الله نوحا صلى الله عليه وسلم لما حضرته الوفاة قال لابنه إني قاص عليك الوصية: آمرك بلا إله إلا الله فإن السماوت السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة ووضعت لا إله إلا الله في كفة رجحت بهن لا إله إلا الله. ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة قصمتهن لا إله إلا الله وسبحان الله وبحمده فإنها صلاة كل شيء وبها يرزق الخلق، وأنهاك عن الشرك والكبر.[2]

==

1: ابن الأثير- 58/1

2: جزء من حديث خرجه الألباني في السلسلة الصحيحة عن عبد الله بن عمر- 259/1

هـود وعـاد

ثاني أهل القرى هم عاد قوم نبي الله هود عليه السلام؛ وعاد هو عاد بن عوص بن جائر بن إرم بن سام بن نوح؛ وهي عاد الأولى.[1] المذكورة في **قوله تعالى:** وأنه أهلك عادا الاولي.**النجم50. وقيل هو:** نبي الله هود بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام. **ويقال:** إن هودا هو عابر بن شالخ بن سام بن نوح.[2] **ويقال:** هود بن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح.[3] وقوم عاد من العرب الذين سكنوا الأحقاف -وهى جبال الرمل- وكانت باليمن بين عمان وحضر موت، بأرض مطلة على البحر يقال لها الشّحرُ، واسم واديهم مغيث.[4]

ويقال للعرب الذين كانوا قبل إسماعيل عليه السلام العرب العاربة؛ وهم قبائل كثيرة: منهم عاد، وثمود، وجرهم، وطسم، وجديس، وأميم، ومدين، وعملاق، وعبيل، وجاسم، وقحطان، وبنو يقطن، وغيرهم. وأما العرب المستعربة فهم من ولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل. وكان إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام أول من تكلم بالعربية الفصيحة البليغة. وكان قد أخذ كلام العرب من جُرهُم؛ الذين نزلوا عند أمه هاجر بالحرم.. ولكن أنطقه الله بها في غاية الفصاحة والبيان.[5]

وكانوا جبارين عماليق طوال القامة لم يكن مثلهم. يقول الله تعالى: {وَاذكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً}**الأعراف69.** فغرتهم قوتهم واستكبروا وظنوا أن ليس على وجه الأرض أو في السماء من هو أقوى منهم ونسوا أن الذي خلقهم حتما ولزاما أن يكون أقوى منهم: {فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ}**فصلت15.**

وهم أول قوم عبدوا الأصنام من بعد الطوفان؛ وكان عندهم ثلاث أصنام هم: صد وصمود وهرا.[6] **ويقال لهم أيضا:** صداء وصمود والهباء.[7] **وقيل:** ضرا وضمور والهباء.[8]

==

1: الطبري- 75/1

2: ابن كثير- 282/1

3: الطبري- 75/1

4: ابن كثير- 76/1

5: ابن كثير- 283/1

6: ابن كثير- 281/1

7: الطبري- 76/1

8: ابن الأثير- 65/1

نسى هؤلاء القوم المستخلفون في الأرض عبادة الله وعادوا إلى عبادة خلق الله من الأصنام و التماثيل، وأشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا فدعاهم نبي الله هود وذكرهم بالله الخالق الواحد: {إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ. إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ. وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ}**الشعراء124-127.**

وقد كانوا عربا جفاة كافرين متمردين يسكنون الخيام ذات الأعمدة العالية، ولأنهم أقوياء البدن صاروا يبنون القصور العظيمة الشاهقة، وكانت عاصمتهم (أرم) نموذج في البهاء والعظمة والفخامة حتى أن الله تعالى قال فيها أنه لم يخلق مثلها في البلاد: {إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ. الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ}**الفجر7-8**.. والذي كانوا يبنونه لم يكن للسكنى بل كان بطراً وللسخرية من عباد الله: {أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ}**الشعراء128. أي:** أتبنون بكل مكان مرتفع بناء عاليًا تشرفون منه فتسخرون مِنَ المارة؟ وذلك عبث وإسراف لا يعود عليكم بفائدة في الدين أو الدنيا: {وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ}**الشعراء129. أي:** وتتخذون قصوراً منيعة وحصونًا مشيَّدة، كأنكم تخلدون في الدنيا ولا تموتون. وإذا بطشتم بأحد من الخلق قتلا أو ضربًا، فعلتم ذلك قاهرين ظالمين: {وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ} **الشعراء130**. نصحهم أخاهم هودا حرصا على سلامتهم ونجاتهم في الدنيا والآخرة فقال لهم: {فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ. وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ. أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ. وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ}**الشعراء131-135.** وكعادة القوم الظالمين كذبوا نبيهم: {قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ}**الأعراف70**. واتهموه بالسفه -الحمق- والكذب: {قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وِإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِين}**الأعراف66.** وادعوا عليه كذلك بالجنون؛ فقالوا: {إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوَءٍ}**هود54. أي:** أصابتك الآلهة بمرض أو جنون ومنه تهذي وتدعي أنك نبيا وأن الله أرسلك إلينا. وأصروا على كفرهم: {إن هو إلا رجل افتري علي الله كذبا وما نحن له بمؤمنين} **المؤمنين39.** وقالوا له أنهم مصرّين على الكفر وجحد نعمة الله عليهم: {قَالُوا سَوَاء عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ. إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ. وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِين}**الشعراء136- 138.** صمموا على أن هذا خلق آباؤهم أي دين آبائهم الأولين وهم عليه ثابتون ولن يبدلوه أبدا مهما حدث لهم فأت يا هود بالعذاب الذي تخوفنا منه فما نحن بمعذبين.

فقال لهم نبي الله هود: {قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللّهِ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ. مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ. إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى

صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ. فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئاً إِنَّ رَبِّي عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ. وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ. وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ وَاتَّبَعُواْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ. وَأُتْبِعُواْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ عَاداً كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْداً لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ}**هود54- 60**

وفد عاد إلى مكة:

لم يؤمن بنبي الله هود منهم إلا القليل؛ فأصابهم قحط تتابع عليهم بتكذيبهم هودا؛ فحبس الله عنهم فيما ذكر القطر سنين ثلاثا حتى جهدوا. فلما أصابهم قالوا: جهزوا منكم وفدا إلى مكة يستسقون لكم. وكان الناس في هذا الزمن إذا جهدهم أمر فطلبوا من الله الفرج منه؛ إنما يطلبونه بحرمه ومكان بيته، وكان معروفا عند أهل ذلك الزمان، وبه العماليق مقيمون، وهم سلالة عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح؛ وكان سيدهم إذ ذاك رجلا؛ يقال له: معاوية بن بكر. وكانت أمه من قوم عاد؛ واسمها: جلهدُة ابنة الخيبري.

فبعثوا نفرا منهم؛ هم: قيل بن عير وهو رئيس الوفد، ولقيم بن هزال، ومرثد بن سعد وكان مسلما يكتم إسلامه، وجلهمة بن الخيبري خال معاوية بن بكر في سبعين نفرا من قومهم. فلما قدموا مكة نزلوا على معاوية بن بكر بظاهر مكة خارجا عن الحرم -وهم عاد الآخرة التي بقيت بعد عاد الأولى-. فلما نزلوا على معاوية أقاموا شهرا يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان -قينتان لمعاوية-؛ فلما رأى معاوية طول مقامهم وتركهم ما أرسلوا له شق عليه ذلك؛ وقال: هلك أخوالي، واستحيا أن يأمر الوفد بالخروج إلى ما بعثوا له فذكر ذلك للجرادتين؛ فقالتا: قل شعرا نغنيهم به لا يدرون من قائله لعلهم يتحركون. فقال معاوية:

ألا يا قيل ويحك قم فهينم ... لعل الله يصبحنا غماما
فيسقي أرض عاد إن عادا ... قد أمسوا لا يبينون الكلام
من العطش فليس نرجو ... به الشيخ الكبيرولا الغلام
وقد كانت نساؤهم بخير ... فقد أمست نساؤهم عياما

وعياما: جمع عيمى، وهي المرأة التي ماتت زوجها ولا ما لها. والهيمنة: الكلام الخفي.

فلما غنتهم الجرادتان ذلك الشعر وسمعه القوم قال بعضهم لبعض: يا قوم بعثكم قومكم يتغوثون بكم من البلاء الذي نزل بهم فأبطأتم عليها فادخلوا الحرم واستسقوا لقومكم. فقال

مرثد بن سعد: إنهم والله لا يسقون بدعائكم ولكن أطيعوا نبيكم فأنتم تُسقون. وأظهر إسلامه عند ذلك. فقال جلهمة بن الخيبري -خال معاوية- لمعاوية بن بكر: احبس عنا مرثد بن سعد فإنه تبع دين هود وترك ديننا. وخرجوا إلى مكة يستسقون بها لعاد؛ فدعوا الله تعالى لقومهم واستسقوا، وقال رئيسهم قيل داعيا: يا إلهنا؛ إن كان هود صادقا فاسقنا فإنا قد هلكنا. فأنشأ الله سحائب ثلاثا بيضاء وحمراء وسوداء؛ ونادى منادي منها: يا قيل اختر لنفسك وقومك من هذا الحساب. فقال: قد اخترت السحابة السوداء فإنها أكثر ماء. فناداه مناد: اخترت رمادا رمددا. ألا تبقي من عاد أحدا. لا ولد تترك ولا والد إلا جعلته همدا. إلا بني اللوذية المهدي. وبني اللوذية بنو لقيم بن هزال كانوا بمكة عند خالهم معاوية بن بكر. كانوا سكان بمكة مع أخوالهم، لم يكونوا مع عاد بأرضهم، فهم عاد الآخرة، ومن كان من نسلهم الذين بقوا من عاد.[1] وساق الله إليهم تلك السحابة السوداء التي اختارها قيلُ بن عتر؛ فلما رأوها استبشروا؛ وقالوا: {هذا عارض ممطرنا}. والعارض لغة هو السحاب. فيقول تعالى رادا علي ظنهم هذا: {بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم. تدمر كل شيء بأمر ربها}. **ويروى:** أن أول من أبصر ما في هذه السحابة السوداء وعرف أن فيها ريح؛ امرأة من عاد يقال لها: مهد.[2] فلما تبينت ما فيها صاحت ثم صعقت، فلما أفاقت؛ قالوا: ما رأيت يا مهدُ؟ قالت: رأيت ريحا فيها كشهب النار، أمامها رجال يقودونها.[3]

وقد اعترض ابن كثير على تلك الرواية السابقة؛ فقال إن: مكة لم تبن إلا بعد إبراهيم الخليل؛ حين أسكن فيها هاجر وابنه إسماعيل؛ فنزلت جُرهُم عندهم؛ كما سيأتي، وعادُ الأولى قبل الخليل. وفيه ذكر معاوية بن بكر وشعره، وهو من الشعر المتأخر عن زمان عاد الأولى لا يشبه كلام المتقدمين. وفيه أن في تلك السحابة شرر نار، وعاد الأولى إنما أُهلكوا بريح صرصر. وقد قال ابن مسعود وابن عباس وغير واحد من أئمة التابعين: هي الباردة والعاتية شديدة الهبوب.[4]

جاء قوم عاد العذاب وهم ينظرون فبما عذبهم الله؟

قال تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ. تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ}**القمر19-20.** فأرسل عليهم ريحا شديدة البرد؛ في يوم شؤم مستمر عليهم بالعذاب، تقتلع

==

1: الطبري- 77/1 و ابن الأثير- 65/1-66 و ابن كثير- 294/1-295

2: واسمها عند الطبري: مهدد. راجع الطبري- 71/1

3: ابن كثير- 296/1

4: ابن كثير- 298/1

الناس من مواضعهم على الأرض فترمي بهم على رؤوسهم فتدق أعناقهم؛ ويفصل رؤوسهم عن أجسادهم؛ فتتركهم كالنخل المنقلع من أصله. **والصرصر:** ذات الصوت الشديد.

وقال تعالى عن المدة التي تم فيها تسخير تلك الرياح المميتة المهلكة عليهم: {سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ}**الحاقة7.** سلَّطها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام متتابعة؛ لا تَفْتُر ولا تنقطع، **والحسوم:** الدائمة. فترى القوم في تلك الليالي والأيام موتى كأنهم أصول نخل خَرِبة متآكلة الأجواف. وهي الريح المسماه بالريح العقيم: {وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ}**الذاريات41.** وهي التي لا خير فيها لأنها لا تحمل المطر ولا تلقح الشجر وتسمى كذلك بالدبور. كما قال رسول الله صلي الله عليه وسلم: نُصرت بالصّبا، وأهلكت عاد بالدبور.(1)

وروي: إن عادا لما عذبهم الله بالريح التي عذبوا بها، كانت تقلع الشجرة العظيمة بعروقها وتهدم عليهم بيوتهم، فمن لم يكن في بيت هبت به الريح حتى تقطعه بالجبال، فهلكوا بذلك كلهم.(2)

ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا تخيلت السماء تغير لونه؛ ودخل وخرج وأقبل وأدبر فإذا أمطرت سرى عنه. فلما ذكرت له عائشة بعض ما رأت منه. قال: وما يدريك لعله كما قال قوم هود: فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به.(3)

فاعتزل هود ومن معه من المؤمنين في حظيرة، يصيبه ومن معه منها إلا ما تلين عليه الجلود وتلتذ الأنفس.. وكان عمر هود مائة سنة وخمسين سنة.(4)

قبر هود: بحضرموت؛ وقيل بالحجر.(5) يقصد حجر إسماعيل عليه السلام؛ وقالوا: يوجد قبر بحضرموت اليمنية لا يبعد كثيرا عن مدينة تريم يقال له قبر هود. وقالوا: قبره قبلي شرقي جامع دمشق؛ والذي عليه العلماء أنه قبر معاوية بن أبي سفيان؛ والله تعالى أعلى وأعلم.

هلك قوم عاد قوم نبي الله هود بظلمهم وعبادتهم لغير الله، ولاغترارهم بقوتهم وظنهم أنه ليس هناك من هو أقوى منهم، ويا ليت الأمريكان ويا ليت كل متكبر بقوته يأخذ من قوم عاد عبرة وعظة.

==

1: خرجه السيوطي عن ابن عباس وصححه الألباني

2: الطبري- 79/1

3: خرجه ابن ماجه في سننه عن عائشة وصححه الألباني- 1280/1

4: الطبري- 78/1

5: ابن الأثير- 67/1

صالح وثمود

ثالث أهل القرى المذكورين في كتاب الله هم قوم ثمود هم أيضاً من العرب العاربة الذين سكنوا الحجر بين أرض الحجاز والشام. وهي قبيلة مشهورة؛ سميت بإسم جدهم ثمود أخي جديس؛ وهما ابنا عابر بن إرم بن سام بن نوح.[1] **وقيل:** ثمود بن جاثر بن أرم بن سام.[2]

وكان العرب يعرفون مساكنهم جيداً فقد مر به رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ذاهب إلى تبوك بمن معه من المسلمين. فعن ابن عمر؛ **أن رسول الله صلى الله عليه وسلم**؛ قال لأصحابه -يعني لما وصلوا الحجر ديار ثمود- لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلاأن تكونوا باكين؛ فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم لا يصيبكم ما أصابهم.[3] وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم كلما مر بهم قنع رأسه وأسرع السير حتى يجيز الوادي.

وصالح هو: نبي الله صالح بن أسف بن كماشج بن إرم بن ثمود بن جائر بن إرم بن سام بن نوح.[4] **وقيل:** صالح بن عبيد بن حاجر بن ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح.[5] **وقيل:** صالح بن عبيد بن أسف بن ماشج بن عبيد بن جادر بن ثمود، **وقيل:** اسف بن كماشج بن أروم بن ثمود.[6] وقوم ثمود هم من جاءوا من بعد عاد: {وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ} **الأعراف74.** فعبدوا الأصنام مثلهم في ذلك مثل من سبقوهم في الضلال من كفار قوم نوح وقوم هود. **وقيل:** أن ثمود قوم صالح عمرهم الله عز وجل في الدنيا، فأطال أعمارهم حتى جعل أحدهم يبني المسكن من المدر فيتهدم؛ والرجل منهم حي، فلما رأوا ذلك اتخذوا من الجبال بيوتا فارهين، فنحتوها وجابوها وجوفوها، وكان في سعة من معايشهم. فلما عبدوا الأصنام وتكبروا على خلق الله أرسل الله فيهم رجلا منهم وهو عبد الله ورسوله صالح؛ {إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُه}**الأعراف73.** فدعاهم إلى عبادة الله الواحد الأحد وأن لا يشركوا به شيئا؛ وأن يتركوا عبادة الأصنام؛ وذكرهم بنعم الله عليهم:{اذْكُرُواْ إِذْ

==

1: ابن كثير- 304/1

2: ابن الأثير- 68/1

3: خرجه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب

4: الطبري- 79/1

5: ابن كثير- 304/1

6: ابن الأثير- 68/1

جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِين} **الأعراف74.** وقد كان عندهم نفس غرور النفس المعروف لقوم عاد؛ نظرا لقوتهم التي من الله بها عليهم؛ فقال لهم نبي الله صالح: {أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ. فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ. وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِين}**الشعراء146-149.**

فهل آمنوا؟ لا كذبوا وعصوا رسولهم: {قَالُواْ يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيب}**هود62. أي:** كنا نحترمك ونقدرك يا صالح من قبل أن تدعونا لعبادة إله واحد واستعجبوا أن يدعوهم إلى نبذ أي معبود من دون الله (سبحان الله). وكعادة الكافرين الجاهلين في كل مكان وزمان اتهموه بالسحر والكذب: {قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ. مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِين} **الشعراء153-154.** وطلبوا منه آية لإثبات نبوته بأن يخرج لهم من صخرة ما ناقة معينة ولها أوصاف معينة محددة من باب تعجيزه؛ فأجابهم الله وأخرج لهم من الصخر الجامد ناقة؛ **فقد ذكر المفسرون:** أن ثمودا اجتمعوا يوما في ناديهم، فجاءهم رسول الله صالح عليه السلام؛ فدعاهم إلى الله تعالى وذكرهم وحذرهم ووعظهم وأمرهم؛ فقالوا له: إن أنت أخرجت لنا من هذه الصخرة -وأشاروا إلى صخرة هناك- ناقة من صفتها كيت وكيت -وذكروا أوصافا سموها ونعتوها وتعنتوا فيها- وأن تكون عُشراء طويلة، من صفتها كذا وكذا.

فقال لهم النبي صالح عليه السلام: أرأيتم إن أجبتكم إلى ما سألتم على الوجه الذي طلبتم، أتؤمنون بما جئتكم به وتصدقوني فيما أرسلت به؟ قالوا: نعم. فأخذ عهودهم ومواثيقهم على ذلك، ثم قام إلى مصلاه، فصلى لله عز وجل ما قُدر له، ثم دعا ربه عز وجل أن يجيبهم إلى ما طلبوا، فأمر الله عز وجل تلك الصخرة أن تنفطر عن ناقة عظيمة كوماء عُشراء، على الوجه الذي طلبوا، وعلى الصفة التي نعتوا، فلما عاينوها كذلك، رأوا أمرا عظيما، ومنظرا هائلا، وقدرة باهرة، ودليلا قاطعا وبرهانا ساطعا، فآمن كثير منهم واستمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم؛ ولهذا قال: فظلموا بها. أي: جحدوا بها ولم يتبعوا الحق بسببها.(1)

وجاء في رواية أخرى أنهم: سألوا صالح أن اخرج معنا إلى عيدنا؛ وكان لهم عيد يخرجون إليه بأصنامهم؛ وقالوا له: أرنا آية فتدعوا إلهك وندعو آلهتنا؛ فإن استجيب لك اتبعناك وإن

==

1: ابن كثير- 311/1

استجيب لنا اتبعتنا. فقال: نعم. فخرجوا بأصنامهم وصالح معهم فدعوا أصنامهم أن لا يستجاب لصالح ما يدعو به. وقال له سيد قومه: يا صالح أخرج لنا من هذه الصخرة -لصخرة منفردة- ناقة جوفاء عشراء، فإن فعلت ذلك صدقناك. فأخذ عليهم المواثيق بذلك، وأتى الصخرة وصلى ودعا ربه عز وجل؛ فإذا هي تتمخض كما تتمخض الحامل ثم انفجرت وخرجت من وسطها الناقة كما طلبوا وهم ينظرون ثم نتجت سقبا مثلها (السَّقْبُ: ولد الناقة الذكر ساعة يولد) في العظم فآمن به سيد قومه واسمه جندع بن عمرو ورهط من قومه.[1] فلما خرجت الناقة قال لهم صالح: دعوها تأكل من رزق الله مما تنبت الأرض فليس عليكم إطعامها؛ وحذرهم من أن يمسوها بسوء وإلا فإن العذاب سيمسهم لا محالة: {وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيب}**هود64.**

وقد كانت تلك الناقة لها يوم معلوم تشرب فيه من بئرهم لا يشاركها أحد من القوم، وفي هذا اليوم كان القوم يشربون من لبنها؛ وإن لم يشربوا من لبنها فهي لا تشرب من مائهم. قسمة أكثر من عادلة أليس كذلك؟! ولكن هؤلاء قوما ظالمين.

المؤامرة:

لما طال على قوم صالح الحال هكذا اجتمع ملؤُهم؛ وزين لهم الشيطان أعمالهم. فتآمروا على الناقة وعلى نبي الله نفسه فذبح الناقة تسعة منهم مفسدين: {وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ. قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ. وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ. فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِين}**النمل48-51.** قال هؤلاء التسعة بعضهم لبعض وتقاسموا بالله بأن يحلف كل واحد للآخرين: لنأتينَّ صالحًا بغتة في الليل فنقتله ونقتل أهله؛ ثم لنقولَنَّ لوليِّ الدم مِن قرابته: ما حضرنا قتلهم؛ وإنا لصادقون فيما قلناه؛ ولكن الله حفظ نبيه من مكرهم ولم يتمكنوا من قتله فتحولوا إلي الناقة ليذبحوها.{فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَر} **القمر29.** وصاحبهم هذا يسمي أحيمر وهو من أشقى خلق الله تعالى، **قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:** ألا أحدثكم بأشقى الناس رجلين أحيمر ثمود الذي عقر الناقة، والذي يضربك يا علي على هذه (علي قرنك) حتى يبل منها هذه (أي لحيته).[2]

==

1: ابن الأثير- 68/1

2: خرجه السيوطي عن عماربن ياسروصححه الألبان

جاء في صفة أحيمر هذا: أنه أحمر أزرق قصير، وكان يقال: إنه ولد زانية، ولد على فراش سالف؛وهو من رجل يقال له صيبان.[1] كذَّبوه ونحروا الناقة. **روي:** فاجتمعوا -التسعة مجرمين- ومشوا إلى الناقة، وهي على حوضها قائمة؛ فقال الشقي لأحدهم: ائتها فاعقرها؛ فأتاها؛ فتعاظمه ذلك، فأضرب عن ذلك، فبعث آخر فأعظم ذلك، فجعل لا يبعث أحدا إلا تعاظمه أمرها، حتى مشى إليها وتطاول فضرب عرقوبيها؛ فوقعت تركض. فأتى رجل منهم صالحا؛ فقال: أدرك الناقة فقد عقرت. فأقبل، فخرجوا يتلقونه ويعتذرون إليه: يا نبي الله، إنما عقرها فلان؛ إنه لا ذنب لنا. قال: انظروا هل تدركون فصيلها! فإن أدركتموه فعسى الله أن يرفع عنكم العذاب! فخرجوا يطلبونه. فلما رأى الفصيل أمه تضطرب أتى جبلا يقال له: القارة قصيرا فصعده وذهبوا ليأخذوه، فأوحى الله عز وجل إلى الجبل؛ فطال في السماء حتى ما تناله الطير. ودخل صالح القرية، فلما رآه الفصيل بكى حتى سالت دموعه، ثم استقبل صالحا؛ فرغا رغوة، ثم رغا أخرى، ثم رغا أخرى. فقال صالح: لكل رغوة أجل يوم؛ تمتعوا في داركم ثلاثة أيام؛ ذلك وعد غير مكذوب؛ إلا أن آية العذاب أن اليوم الأول تصبح وجوهكم مصفرة، واليوم الثاني محمرة، واليوم الثالث مسودة. فلما أصبحوا إذا وجوههم كأنما طليت بالخلوق **(نوع من الطيب أغلبه زعفران ويغلب عليه اللون الأصفر والأحمر)**، صغيرهم وكبيرهم، ذكرهم وأنثاهم؛ فلما أمسوا صاحوا بأجمعهم: ألا قد مضى يوم من الأجل وحضركم العذاب، فلما أصبحوا اليوم الثاني إذا وجوههم محمرة، كأنما خضبت بالدماء، فصاحوا وضجوا وبكوا وعرفوا أنه العذاب. فلما أمسوا صاحوا بأجمعهم: ألا قد مضى يومان من الأجل، وحضركم العذاب. فلما أصبحوا اليوم الثالث فإذا وجوههم مسودة كأنما طليت بالقار(الزفت ولونه أسود)؛ فصاحوا جميعا: ألا قد حضركم العذاب فتكفنوا وتحنطوا (تطيبوا)، وكان حنوطهم الصبر والمقر، وكانت أكفانهم الأنطاع (فراش من جلد)، ثم ألقوا أنفسهم إلى الأرض، فجعلوا يقلبون أبصارهم إلى السماء مرة، وإلى الأرض مرة، لا يدرون من حيث يأتيهم العذاب، من فوقهم من السماء، أو من تحت أرجلهم من الأرض خشعا وفرقا، فلما أصبحوا اليوم الرابع أتتهم صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شيء له صوت في الأرض، فتقطعت قلوبهم في صدورهم فأصبحوا في ديارهم جاثمين.[2]

وروي: فانطلقوا يرصدون الناقة، فلما صدرت من وردها كمن لها مصدع، فرماها بسهم فانتظم

==

1: ابن كثير- 312/1

2: الطبري- 80/1

ساقها؛ وجاء النساءُ؛ نساءُ القبيلة في قتلها، وحسرن عن وجوههن؛ ترغيبا لهم، فابتدرهم قُدارُ بن سالف فشد عليها بالسيف فكشف عن عرقوبها، فخرت ساقطة إلى الأرض، ورغت رغاة واحدة عظيمة، تحذر ولدها، ثم طعن في لبتها؛ فنحرها، وانطلق سقبُها -ولدها- وهو فصيلها، فصعد جبلا منيعا، ورغا ثلاثا. **وروي:** أنه قال -ولد الناقة-: يا رب أين أمي؟ ثم دخل في صخرة فغاب فيها. ويقال: بل اتبعوه فعقروه أيضا.[1] **وبعد ذبحهم للناقة:** قال لهم صالح: استمتعوا بحياتكم في بلدكم ثلاثة أيام؛ فإن العذاب نازل بكم بعدها؛ وذلك وَعْدٌ من الله غير مكذوب؛ لا بد من وقوعه: {فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوب}**هود65.** فأرسل الله عليهم العذاب الذي كانوا يوعدون فبما عذبهم؟

عذبهم بالرجفة: {فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِين}**الأعراف78.**

فأخذَت الذين كفروا الزلزلةُ الشديدة التي خلعت قلوبهم؛ فأصبحوا في بلدهم هالكين؛ لاصقين بالأرض على رُكَبِهم ووجوههم؛ لم يُفْلِت منهم أحد: {أَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ. كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا أَلاَ إِنَّ ثَمُودَ كَفرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْداً لِّثَمُود}**هود67-68.**

وأخذت الصيحة القوية ثمود الظالمين؛ فأصبحوا في ديارهم موتى هامدين ساقطين على وجوههم لا حِرَاك لهم. وانتهي قوم ثمود كما انتهي قوم عاد وتركت لنا مساكنهم من بعدهم للعظة والعبرة فهل من معتبر؟ {وَعَاداً وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِين}**العنكبوت38.**

قالوا: لم يبق منهم أحد إلا جارية كانت مقعدة، واسمها: كلبةُ بنت السّلق. ويقال لها: الزُّريعة. وكانت شديدة الكفر والعداوة لصالح عليه السلام؛ فلما رأت العذاب أُطلقت رجلاها، فقامت تسعى كأسرع شيء، فأتت حيا من العرب فأخبرتهم بما رأت وما حل بقومها، واستسقتهم ماء، فلما شربت ماتت.[2]

وعن جابر؛ قال: لما مر النبي صلى الله عليه وسلم بالحجر؛ قال: لا تسألوا الآيات فقد سألها قوم صالح؛ فكانت يعني الناقة ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج فعتوا عن أمر ربهم فعقروها فأخذتهم الصيحة؛ فأهمد الله من تحت السماء منهم.[3]

==

1: ابن كثير- 313/1

2: ابن كثير- 316/1-317

3: ذكره الألباني في فقه السيرة- ص408؛ وقال: وفي النفس منه شيء

وقد أنكر اليهود عاد وثمود وهود وصالح في التوراة؛ رغم إن أمرهم عند العرب الشهرة في الجاهلية والإسلام كشهرة إبراهيم وقومه. **قال ابن الأثير:** وليس إنكارهم ذلك بأعجب من إنكارهم نبوة الخليل ورسالته، وكذلك إنكارهم حال المسيح عليه السلام.[1] **وقال ابن جرير:** ولولا كراهة إطالة الكتاب بما ليس من جنسه، لذكرت من شعر شعراء الجاهلية الذي قيل في عاد وثمود وأمورهم بعض ما قيل. ما يعلم به من ظن خلاف ما قلنا في شهرة أمرهم في العرب صحة ذلك.[2]

قبر صالح:

يوجد بحضرموت قبر يدعونه قبر صالح؛ ويقولون إن ثمودا ارتحلوا من حضرموت إلى الشمال فلما هلكوا جاء صالح إلى موطن قومه الأول. ومن أهل العلم من يزعم أن صالحا عليه السلام توفي بمكة وهو ابن ثمان وخمسين سنة. وأنه أقام في قومه عشرين سنة.[3] **وقيل:** وأما صالح عليه السلام فإنه سار إلى الشام فنزل فلسطين، ثم انتقل إلى مكة فأقام بها يعبد الله حتى مات.[4]

==

1: ابن الأثير- 71/1

2: الطبري- ص81ج1

3: نفسه

4: ابن الأثير- 71/1

إبـراهـيم وقـومه

ما من أهل كتاب إلا وأرادوا أن ينسبوه إلى ملتهم ويدخلونه في ديانتهم؛ وذلك لعظم شرفه وكريم فضله؛ هو أبو الأنبياء وخليل الرحمن إبراهيم: بن تارخ بن ناحور بن ساروغ بن راغو بن فالغ بن عابر ابن شالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام.[1]

قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِين} **الأنعام74.** هذا يدل على أن اسم أبى إبراهيم آزر، وجمهور أهل النسب، منهم ابن عباس، على أن اسم أبيه تارح. وأهل الكتاب يقولون تارخ بالخاء المعجمة، فقيل: إنه لقب بصنم كان يعبده اسمه آزر. والصواب أن اسمه آزر. ولعل له اسمان علمان، أو أحدهما لقب والآخر علم. أو كما قال السيوطي في تفسيره اسمه تارخ ولقبه آزر وهذا الذى قاله محتمل والله أعلم.

أين وُلد إبراهيم؟

اختلف المؤرخين: فبعضهم قال: كان مولده بالسوس من أرض الأهواز. **وقيل:** كان مولده ببابل من أرض السواد. **وقيل:** كان بالسواد بناحية كوثى. وقيل: كان مولد بحران، ولكن أباه تارخ نقله إلى أرض بابل. **وقال عامة السلف من أهل العلم:** كان مولد إبراهيم عليه السلام في عهد نمرود بن كوش.[2]**ونمرود هو ملك بابل؛ واسمه:** النمرود بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح. **قاله مجاهد. وقال غيره:** نمرود بن فالح بن عابر بن صالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح.. وكان أحد ملوك الدنيا. فإنه قد ملك الدنيا فيما ذكروا أربعة: مؤمنان وكافران، فالمؤمنان ذو القرنين وسليمان، والكافران النمرود وبختنصر.[3]

قالوا: ولما كان عمر تارخ خمسا وسبعين سنة ولد له إبراهيم عليه السلام وتاحور وهاران، وولد لهاران لوط. وعند أهل الكتاب أن إبراهيم عليه السلام هو الأوسط، وأن هاران مات في حياة أبيه في أرضه التى ولد فيها، وهى أرض الكلدانيين يعنون أرض بابل.

وجاء في خبر مولده: أنه طلع كوكب على نمرود؛ فذهب بضوء الشمس والقمر؛ ففزع من ذلك فزعا شديدا؛ فدعا السحرة والكهنة والقافة والحازة؛ فسألهم عنه؛ فقالوا: يخرج من ملكك رجل يكون على وجهه هلاكك وهلاك ملكك. وكان مسكنه ببابل الكوفة؛ فخرج من قريته إلى قرية

==

1: ابن كثير- 324/1

2: الطبري- 8/1

3: ابن كثير- 342/1-343

أخرى، فأخرج الرجال وترك النساء، وأمر ألا يولد مولود ذكر إلا ذبحه، فذبح أولادهم.

وقد أراد النمرود حاجة له في المدينة لم يأمن عليها إلا آزر أبا إبراهيم؛ فدعاه فأرسله. فقال له: انظر لا تواقع أهلك. فقال له آزر: أنا أضن بديني من ذلك. فلما دخل القرية نظر إلى أهله فلم يملك نفسه أن وقع عليها، فقربها إلى قرية بين الكوفة والبصرة، يقال لها أور، فجعلها في سرب[1]، فكان يتعاهدها بالطعام والشراب وما يصلحها، إن الملك لما طال عليه الأمر قال: قول سحرة كذابين، ارجعوا إلى بلدكم، فرجعوا. وولد إبراهيم؛ فكان في كل يوم يمر كأنه جمعة والجمعة كالشهر والشهر كالسنة، من سرعة شبابه. ونسى الملك ذلك، فقال أبو إبراهيم لأصحابه: إن لي إبنا قد خبأته، أفتخافون عليه الملك إن أنا جئت به؟ قالوا: لا، فأت به. فانطلق فأخرجه، فلما خرج الغلام من السرب نظر إلى الدواب والبهائم والخلق؛ فجعل يسأل أباه: ما هذا؟ فيخبره عن البعير أنه بعير، وعن البقرة أنها بقرة، وعن الفرس أنه فرس، وعن الشاة أنها شاة؛ فقال: ما لهؤلاء الخلق بد من أن يكون لهم رب، وكان خروجه حين خرج السرب بعد غروب الشمس، فرفع رأسه إلى السماء؛ فإذا هو بالكوكب وهو المشترى؛ فقال: هذا ربي. فلم يلبث أن غاب؛ فقال: لا أحب الأفلين. أي: لا أحب ربا يغيب. **قال ابن عباس:** وخرج في آخر الشهر، فلذلك لم ير القمر قبل الكواكب؛ فلما كان آخر الليل رأى القمر بازغا قد طلع، فقال: هذا ربي فلما أفل. يقول: غاب. قال: لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين. فلما أصبح ورأى الشمس بازغة؛ قال: هذا ربي هذا أكبر. فلما غابت قال الله له: أسلم. قال: أسلمت لرب العالمين. ثم أتى قومه فدعاهم؛ فقال: يا قوم إني بريء مما تشركون. إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا. يقول: مخلصا. فجعل يدعو قومه وينذرهم.[2]

وقد أنكر ابن كثير رواية السرب تلك؛ فقال: والظاهر أن موعظته هذه في الكواكب لأهل حرّان؛ فإنهم كانوا يعبدونها. وهذا يرد قول من زعم أنه قال هذا حين خرج من السرب لما كان صغيرا كما ذكره ابن إسحاق وغيره. وهو مستند إلى أخبار إسرائيلية لا يوثق بها، ولا سيما إذا خالفت الحق، وأما أهل بابل فكانوا يعبدون الأصنام، وهم الذين ناظرهم في عبادتها وكسرها عليهم وأهانها وبيّن بطلانها.[3]

==

1: السرب: بفتح وتشديد السين وفتح الراء: حفير تحت الأرض لا منفذ له

2: الطبري- 82/1

3: ابن كثير- 331/1

الفتى إبراهيم يكيد الأصنام:

كان آزر أبو إبراهيم يصنع الأصنام؛ ثم يعطيها لأولاده ليبيعونها؛ فكان إبراهيم ينادي على الأصنام: من يشتري ما يضره ولا ينفعه؟ فيرجع إخوته وقد باعوا أصنامهم إلا إبراهيم يرجع بأصنامه كما هي، ثم دعا أباه؛ فقال: {يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً. يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً. يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً. يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً}**مريم42-45.** انظر لهذا التلطف والأدب في محاورة الأب وهو كافر من عبدة الأوثان والولد نبي من أعظم الأنبياء إذ يقول لأبيه مستنكرًا: يا أبت كيف تعبد الأصنام من دون الله وهم لا يسمعون ولا يبصرون ولا ينفعون ولا يضرون فكيف يكون إله من لا تتوافر فيه هذه الصفات؟ كيف يجعل المخلوقات بصيرة وهو في نفسه لا يبصر؟ أو يجعل المخلوقات تسمع وهو لا يسمع؟ كيف يجعل المخلوقات قادرة على النفع والضر وهو ذاته لا يقدر فيضر أو ينفع؟ وكل هذا اعتراضات بديهية حسية وجب أن يعلمها كل ذو عقل وإن كان لم يرسل إليه من نبي يدعوه إلى عبادة السميع البصير. فما كان من الأب إلا الإصرار والتمسك بكفره وحيده عن العلم الظاهر والحق الباهر: {قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْراهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّا}**مريم46.** فيستمر إبراهيم على نفس وتيرته من التلطف والود مع أبيه: {قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً. وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاء رَبِّي شَقِيّا} **مريم47-48.** فقال له والده: يا إبراهيم؛ إن لنا عيدا لو قد خرجت معنا لأعجبك ديننا، فلما كان يوم العيد، فخرجوا إليه خرج معهم إبراهيم، فلما كان ببعض الطريق ألقى بنفسه؛ وقال: إني سقيم، يقول: أشتكي رجلي. فلما مضوا وتركوه نادى في آخرهم: وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين. فسمعوها منه، ثم رجع إبراهيم إلى بيت الآلهة، فإذا هو في بهو عظيم، مستقبل باب البهو صنم صغير إلى جنبه أصغر منه، بعضها إلى جانب بعض، كل صنم يليه أصغر منه، حتى بلغوا باب البهو؛ وإذا هم صنعوا طعاما، فوضعوه بين يدي الآلهة؛ قالوا: إذا كان حين نرجع رجعنا، وقد باركت الآلهة في طعامنا فأكلنا. فلما نظر إليهم إبراهيم وإلى ما بين أيديهم من الطعام؛ قال: ألا تأكلون؟ فلما تجبه؛ قال: ما لكم لا تنطقون. فراغ عليهم ضربا باليمين، فأخذ حديدة فبقر كل صنم في حافتيه، ثم علق الفأس في عنق الصنم الأكبر؛ ثم خرج. فلما جاء القوم إلى طعامهم؛ ونظروا إلى آلهتهم؛ قالوا: من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين. قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم. يعنون: فتى يسبها ويعيبها ويستهزئ بها، لم نسمع أحدا يقول ذلك غيره، وهو

الذي نظن صنع هذا بها. وبلغ ذلك نمرود وأشراف قومه؛ فقالوا: فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون. أي: ما يصنع به. فلما أتى به فاجتمع له قومه عند ملكهم نمرود.

قال القوم لإبراهيم: أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم. قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون. قال إبراهيم: إن كبير هذا الأصنام غضب أن يعبد معه أولئك الأصنام الصغيرة وهو أكبر منها فكسرهن. وهنا ذهل القوم لحجة إبراهيم ونكثوا رؤوسهم؛ وقالوا: لقد علمت ما هؤلاء ينطقون. أي: لا يتكلمون فيخبرونا من صنع بهم هذا. فقال عند ذلك إبراهيم حين ظهرت الحجة عليهم: أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم. أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون. فأخذ القوم يحاجونه عند ذلك في الله الذي يدعوهم إليه إبراهيم؛ ويخبرونه أن آلهتهم خير مما يعبد؛ فقال: أتحاجونّي في الله وقد هدان. إلي قوله: فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون. يضرب لهم الأمثال ويصرف لهم العبر، ليعلموا أن الله هو أحق أن يخالف ويعبد مما يعبدون من دونه.

وهنا تدخل الملك النمرود؛ فقال لإبراهيم: أرأيت إلهك هذا الذي تعبد وتدعو إلى عبادته، وتذكره من قدرته التي تعظمه بها على غيره ما هو؟ قال إبراهيم ربي الذي يحي ويميت. فقال النمرود: فأنا أحيي وأميت. فقال له إبراهيم: كيف تحي وتميت؟ قال: آخذ الرجلين قد استوجبا القتل في حكمي؛ فأقتل أحدهما فأكون قد أمته، وأعفوا عن الآخر فأتركه فأكون قد أحييته. فقال له إبراهيم عند ذلك: فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب. فبهت النمرود ولم يرد عليه بشيء؛ يقول الله تعالى: فبهت الذي كفر. يعني وقعت عليه الحجة.

النمرود يثأر لآلهته:

لما أقام عليهم إبراهيم الحجة البالغة أجمع النمرود وقومه على حرق إبراهيم نصرا لآلهتهم الصماء؛ فقالوا: حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين. فأمر النمرود بجمع الحطب؛ فجمعوا له صلاب الحطب من أصناف الخشب؛ حتى أن كانت المرأة من قرية إبراهيم فيما يذكر لتنذر لئن عوفيت من مرضي لتحملن حطبا لحريق إبراهيم. وقد جاء في سنة قتل الوزغ -البرص- قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن إبراهيم لما ألقي في النار؛ لم يكن في الأرض دابة إلا أطفأت النار عنه غير الوزغ؛ فإنها كانت تنفخ عليه.[1] حتى إذا أرادوا أن يلقوه فيها قدموه وأشعلوا في كل ناحية من

==

1:خرجه السيوطي عن عائشة وصححه الألباني

الحطب الذي جمعوا له، حتى إذا اشتعلت النار، واجتمعوا لقذفه فيها؛ قالوا: حتى أن كان الطير ليمر بها فيحترق من شدة وهجها وحرها. ثم وضعوا إبراهيم في كفة منجنيق؛ صنعه لهم من الأكراد يقال له: هيزنُ. وكان أول من صنع المنجنيق، فخسف الله به الأرض؛ فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة؛ ثم أخذوا يقيدونه ويكتفونه؛ وهو يقول: لا إلا إلا أنت، سبحانك لك الحمد ولك الملك، لا شريك لك.[1] فلما ألقوه في النار؛ **قال تعالى:** يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم. فكان كما قال الله تعالى. **قال ابن عباس:** لو لم يتبع بردها سلاما لمات إبراهيم من بردها.[2] فلما طفئت النار نظروا إلى إبراهيم فإذا هو ورجل آخر معه، وإذا رأس إبراهيم في حجره يمسح عن وجهه العرق، وذكر أن ذلك الرجل ملك الظل. **وفي النار: قالوا:** بعص الله عز وجل ملك الظل في صورة إبراهيم؛ فقعد فيها إلى جنبه يؤنسه، فمكث نمرود أياما لا يشك إلا أن النار قد أكلت إبراهيم وفرغت منه، ثم ركب فمر بها وهي تحرق ما جمعوا لها من الحطب؛ فنظر إليها، فرأى إبراهيم جالسا فيها إلى جنبه رجل مثله، فرجع من مركبه ذلك؛ فقال لقومه: لقد رأيت إبراهيم حيا في النار، ولقد شبه عليّ، إبنوا لي صرحا يشرف بي على النار حتى أتثبت، فبنوا له صرحا؛ فأشرف عليه فاطلع منه إلى النار، فرأى إبراهيم جالسا فيها، ورأى الملك قاعدا إلى جنبه في مثل صورته؛ فنداه نمرود: يا إبراهيم، كبير إلهك الذي بلغت قدرته وعزته أن حال بين ما أرى وبينك، حتى لم تضرك يا إبراهيم، هل تستطيع أن تخرج منها؟ قال: نعم. قال: هل تخشى إن أقمت فيها أن تضرك؟ قال: لا. قال: فقم واخرج منها. فقام إبراهيم يمشي فيها حتى خرج منها. فلما خرج إليه قال: يا إبراهيم؛ من الرجل الذي رأيت معك في مثل صورتك قاعدا إلى جنبك؟ قال: ذلك ملك الظل، أرسله إليّ ربي ليكون معي فيها ليؤنسني، وجعلها على بردا وسلاما. فقال نمرود: يا إبراهيم؛ إني مقرب إلى إلهك قربانا لما رأيته من عزته وقدرته، ولما صنع بك حين أبيت إلا عبادته وتوحيده، إني ذابح له أربعة آلاف بقرة. فقال إبراهيم: إذا لا يقبل الله منك ما كنت على شيء من دينك هذا حتى تفارقه إلى ديني. فقال: يا إبراهيم لا أستطيع ترك ملكي، ولكن سوف أذبحها له. فذبحها نمرود، ثم كف عن إبراهيم، ومنعه الله عز وجل منه.[3] وقد ذكر السُّدّي أن هذه المناظرة كانت بين إبراهيم وبين النمرود يوم خرج من النار، ولم يكن اجتمع به إلا يومئذ، فكانت بينهما هذه المناظرة.[4]

==

1 ابن كثير- 337/1 | 2: الطبري- 84/1

3: نفسه | 4: ابن كثير- 344/1

وروي: جاء جبريل إلى إبراهيم وهو يوثق ويقمط ليلقى في النار، قال: يا إبراهيم، ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا. **وروي:** ما أحرقت النار من إبراهيم إلا وثاقه. **وروي:** أن إبراهيم مكث في النار أربعين أو خمسين يوما؛ وأنه قال: ما كنت أياما وليالي أطيب عيشا إذ كنت فيها، ووددت أن عيشي وحياتي كلها مثل إذ كنت فيها.[1] **وروي عن زيد بن أسلم:** وبعث الله إلى ذلك الملك الجبار ملكا يأمره بالإيمان بالله فأبى عليه؛ ثم دعاه الثانية فأبى عليه، ثم الثالثة فأبى عليه؛ وقال: اجمع جموعك وأجمع جموعي. فجمع النمرود جيشه وجنوده وقت طلوع الشمس، فأرسل الله عليه ذبابا من البعوض بحيث لم يروا عين الشمس، وسلطها الله عليهم، فأكلت لحومهم ودمائهم وتركتهم عظاما بالية. ودخلت واحدة منها في منخري الملك؛ فمكث في منخرية أربعمائة سنة، عذبه الله تعالى بها، فكان يُضرب رأسه بالمرزاب في هذه المدة كلها، حتى أهلكه الله عز وجل بها. والله تعالى أعلى وأعلم.[2]

وبعد النار:

استجاب لإبراهيم عليه السلام رجال من قومه حين رأوا ما صنع الله به علي خوف من نمرود وملتهم؛ فآمن له لوط وكان ابن أخيه؛ وهو لوط بن هاران بن تارخ. وتارخ هو أخو إبراهيم: فآمن به لوط وقال إني مهاجر إلى ربي.**العنكبوت26.** وكان لإبراهيم أخ ثالث يقال له: ناحور بن تارخ. وآمنت به سارة وهي ابنة عمه هاران الأكبر عم إبراهيم. وكان لها أختا يقال لها ملكا وتزوجت أخوهه ناحور. **قالوا:** وكانت سارة عاقرا لا تلد.

هجرة إبراهيم إلى أرض الشام ودخوله مصر:

انطلق تارخ بابنه إبراهيم وامرأته سارة وابن أخيه لوط بن هاران، يبحث عن أرض يتمكن فيها من عبادة الله عز وجل ودعوة الخلق إليه؛ فخرج بهم من أرض الكلدانيين إلى أرض الكنعانيين، فنزلوا حران فمات فيها تارخ وله مائتان وخمسون سنة. وهذا يدل على أنه لم يولد بحران، وإنما مولده بأرض الكلدانيين وهى أرض بابل وما والاها. ثم ارتحلوا قاصدين أرض الكنعانين، وهى بلاد بيت المقدس، فأقاموا بحران وهى أرض الكشدانيين في ذلك الزمان، وكذلك أرض الجزيرة والشام

==

1: ابن كثير- 339/1

2: ابن كثير- 345/1

أيضا، وكانوا يعبدون الكواكب السبعة. والذين عمروا مدينة دمشق كانوا على هذا الدين، يستقبلون القطب الشمالي ويعبدون الكواكب السبعة بأنواع من الفعال والمقال. ولهذا كان على كل باب من أبواب دمشق السبعة القديمة هيكل لكوكب منها، ويعملون لها أعيادا وقرابين. وهكذا كان أهل حران يعبدون الكواكب والاصنام وكل من كان على وجه الارض كانوا كفارا، سوى إبراهيم الخليل وامرأته وابن أخيه لوط عليهم الصلاة والسلام.[1] وقد أصاب الناس قحط وشدة وغلاء فارتحلوا إلى مصر.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات: ثنتين منهن في ذات الله؛ قوله: إني سقيم. وقوله: بل فعله كبيرهم هذا. وبينما هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة؛ فقيل له إن ها هنا رجلا معه امرأة من أحسن الناس؛ فأرسل إليه؛ فسأله عنها؛ فقال: من هذه؟ قال: أختي. فأتى سارة فقال: يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، وإن هذا سألني فأخبرته أنك أختي فلا تكذّبيني. فأرسل إليها فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده؛ فأخذ فقال: ادعي الله لي ولا أضرك. فدعت الله؛ فأطلق. ثم تناولها ثانية؛ فأخذ مثلها أو أشد؛ فقال: ادعي الله لي ولا أضرك. فدعت فدعا بعض حجبته؛ فقال: إنك لم تأتني بإنسان إنما أتيتني بشيطان. فأخدمها هاجر. فأتته -أي إبراهيم- وهو قائم يصلي بيده؛ فأومأ بيده: مهيا.-أي مالخبر- قالت: رد الله كيد الفاجر في نحره وأخدم هاجر.[2]

وقال عليه السلام في حديث الشفاعة: فيأتون إيراهيم. فيقول: إني كذبت ثلاث كذبات. ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما منها كذبة إلا ما حل بها عن دين الله.[3] وكانت هاجر جارية ذات هيئة، فوهبتها سارة لإبراهيم؛ وقالت: إني أراها امرأة وضيئة فخذها لعل الله يرزقك منها ولدا. وكانت سارة قد منعت الولد فلا تلد لإبراهيم حتى أسنت، وكان إبراهيم قد دعا الله أن يهب له من الصالحين، وأخرت الدعوة حتى كبر إبراهيم وعقمت سارة، ثم إن إبراهيم وقع على هاجر فولدت له إسماعيل عليهما السلام.[4] وهذا هو النسب الذي أخبر به محمد صلى الله عليه وسلم حين قال: إذا فتحت مصر؛ فاستوصوا بالقبط خيرا؛ فإن لهم ذمة ورحما.[5]

==

1: ابن كثير- 326/1

2: خرجه السيوطي عن أبي هريرة وصححه الألباني

3: خرجه الترمذي في جامعه عن أبي سعيد وصححه الألباني

4: الطبري- 86/1

5: خرجه السيوطي عن كعب بن مالك وصححه الألباني

قال ابن كثير: ورأيت في بعض الآثار أن الله عز وجل كشف الحجاب فيما بين إبراهيم عليه السلام وبينها، فلم يزل يراها منذ خرجت من عنده إلى أن رجعت إليه، وكان مشاهدا لها وهي عند الملك، وكيف عصمها الله منه؛ ليكون ذلك أطيب لقلبه، وأقر لعينه، وأشد لطمأنينته، فإنه كان يحبها حبا شديدا؛ لدينها وقرابتها منه وحسنها الباهر؛ فإنه قد قيل: إنه لم تكن امرأة بعد حواء إلى زمانها أحسن منها.[1] **وقيل:** اسم فرعون مصر هذا: سنان بن علوان بن عبيد بن عولج بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح.[2] **وقيل:** اسمه عمرو بن امرئ القيس بن سبأ.[3] **وقيل:** اسمه صادوق حكاه ابن قتيبة.[4]

دفاعا عن إبراهيم:

لابد أن نعلم أن هذه ثلاث كذبات لم يؤاخذ بهن الله تعالى نبيه إبراهيم، وكما قال رسولنا فيهن كذبتان في الله، وذلك لأنهما أحد أساليب الدعوة إلى الله إذ أراد إبراهيم أن يظهر لقومه مدى سفاهتهم في عبادة ما يقومون بنحته من الأصنام، فادعى المرض فقال إني سقيم، وذهب إلى معبدهم وحطم أصنامهم، وليقيم الحجة العقلية الظاهرة عليهم علق الفأس الذي حطم به الأصنام في رقبة كبيرهم لعلهم يرجعون إليه فيخبرهم -أي الصنم الكبير- بمن فعل بهم هذه الفعلة التي يستنكرونها، وهذا نوع من التوبيخ والتقريع لهم لعلهم يتفكرون في تلك الآلهة الحجرية التي لا تنطق ولا تسمع ولا ترى، لعلهم يرجعون إلى الإله الحق الذي لا إله إلا هو، ولكنهم أصروا على عنادهم وكفرهم وتمادوا في تقديس الحجارة التي صنعوا منها آلهة تعبد من دون الله. وباعتبار أنه كان بين إبراهيم النبي المؤمن وأهله الكفار حرب والحرب خدعة، فقد خدعهم إبراهيم لعلهم يتفكرون، ولكن الشيطان كان قد استحوذ عليهم ففكروا في الانتقام لآلهتهم الصماء وفكروا في حرق إبراهيم، وبقية القصة قد ذكرناها.

وكما قلنا أن الله تعالى لم يؤاخذ إبراهيم بتلك الكذبات الثلاثة إلا إن إبراهيم لم يسامح نفسه قط على تلك الكذبات في الله لأنه هو الخليل أبو الأنبياء صلوات ربي وسلامه عليه، لذا ستجد أن الناس يوم القيامة عندما يأتونه للشفاعة سيذكرهم بكذباته الثلاثة فيستحي بهن من الله تعالى

==

1: ابن كثير- 352/1

2: ابن الأثير- 77/1

3: الروض الأنف- ابن هشام- 91/1

4: فتح الباري- 392/1

ويقول نفسي نفسي وينصحهم بالذهاب إلى غيره من الأنبياء.. **قال ابن حزم:** وهذا كله ليس على ما ظنوه بل هو حجة لنا والحمد لله رب العالمين، أما الحديث أنه عليه السلام كذب ثلاث كذبات فليس كل كذب معصية بل منه ما يكون طاعة لله عز وجل وفرضاً واجباً يعصى من تركه. وصح أن **رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:** ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فيمني خيراً. وقد أباح عليه السلام كذب الرجل لامرأته فيما يستجلب به مودتها، وكذلك الكذب في الحرب، وقد أجمع أهل الإسلام على أن إنسانا لو سمع مظلوما قد ظلمه سلطان وطلبه ليقتله بغير حق ويأخذ ماله غصبا فاستتر عنده وسمعه يدعو على من ظلمه قاصداً بذلك السلطان فسأل السلطان ذلك السامع عما سمعه منه وعن موضعه فإنه إن كتم ما سمع وأنكر أن يكون سمعه أو أنه يعرف موضعه أو موضع ماله فإنه محسن مأجور مطيع لله عز وجل وأنه إن صدق فأخبره بما سمعه منه وبموضعه وموضع ماله كان فاسقاً عاصيا لله عز وجل فاعل كبيرة مذموما نماما، وقد أبيح الكذب في إظهار الكفر في التقية، وكل ما روى عن إبراهيم عليه السلام في تلك الكذبات فهو داخل في الصفة المحمودة لا في الكذب الذي نهى عنه. وأما قوله عن سارة هي أختي فصدق؛ هي أخته من وجهين:

الوجه الأول: قال الله تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَة}**الحجرات 10. وقال عليه السلام:** لا يخطب أحدكم على خطبة أخيه.

والوجه الثاني: القرابة؛ وإنها من قومه ومن مستجيبيه قال عز وجل: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبا} **الأعراف85.** فمن عد هذا كذبا مذموما من إبراهيم عليه السلام فليعده كذبا من ربه عز وجل وهذا كفر مجرد فصح أنه عليه السلام صادق في قوله سارة أخته.. وأما قوله عليه السلام: {قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا}**الأنبياء63.** فإنما هو تقريع لهم وتوبيخ كما قال تعالى: {ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيم}**الدخان49.** وهو في الحقيقة مهان ذليل مهين معذب في النار فكلا القولين توبيخ لمن قيلا له على ظنهم أن الأصنام تفعل الخير والشر وعلى ظن المعذب في نفسه في الدنيا أنه عزيز كريم، ولم يقل إبراهيم هذا على أنه محقق لأن كبيرهم فعله إذ الكذب إنما هو الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو عليه قصدا إلى تحقيق ذلك.[1]

==

1: الفصل في الملل والأهواء والنحل- 2/298-299

عودة إبراهيم من مصر إلى الشام:

خرج إبراهيم مع زوجه سارة وجاريته المصرية هاجر من مصر إلى الشام خوفا من فرعون فنزل السبع من أرض فلسطين. وكان إبراهيم قد اتخذ بالسبع بئرا ومسجدا.. فآذاه أهل السبع فانتقل عنهم.. وأقام إبراهيم بين الرملة وإيليا.[1]

مولد إسماعيل وغيرة سارة:

كان إبراهيم قد بلغ من العمر ستة وثمانون سنة؛ وكانت سارة عقيم عجوز لا تنجب؛ فلما دخل على هاجر حملت في إسماعيل. وولدته فاشتدت غيرة سارة منها؛ وطلبت من إبراهيم أن يغيب وجهها عنها، فذهب بها وبولدها، فسار بهما حتى وضعهما حيث مكة اليوم.[2] وكان إسماعيل طفلا رضيعا وقتها؛ فلما تركهما هناك وولى ظهره عنهما، قامت إليه هاجر؛ وتعلقت بثيابه، وقالت: يا إبراهيم، أين تذهب وتدعنا ههنا وليس معنا ما يكفينا؟ فلم يجبها. فلما ألحت عليه وهو لا يجيبها؛ قالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: فإذا لا يضيعنا.

وروي: فلما ولد إسماعيل حزنت سارة حزنا شديدا فوهبها الله إسحاق وعمرها سبعون سنة، فعمر إبراهيم مائة وعشرون سنة، فلما كبر إسماعيل وإسحاق اختصما فغضبت سارة على هاجر فأخرجتها ثم أعادتها فغارت منها، فأخرجتها وحلفت لتقطعن منها بضعة؛ فتركت أنفها وأذنها لئلا تشينها ثم خفضتها فمن ثم خفض النساء، **وقيل:** كان إسماعيل صغيرا وإنما أخرجتها سارة غيرة منها وهو الصحيح، وقالت سارة: لا تساكنني في بلد. فأوحى الله إلي إبراهيم أن يأتي مكة وليس بها يومئذ نبت.[3] **وروي:** أن سارة تغضبت على هاجر، فحلفت لتقطعن ثلاثة أعضاء منها، فأمرها الخليل أن تثقب أذنيها، وأن تخفضها، فتبر قسمها. **قال السهيلي:** فكانت أول من اختتن من النساء، وأول من ثقبت أذنها منهن، وأول من طولت ذيلها.[4]

==

1: ابن الأثير- 79/1

2: ابن كثير- 356/1

3: ابن الأثير- 79/1

4: ابن كثير- 356/1

هاجر ورضيعها:

وقف إبراهيم بعيدا عن هاجر وولده الرضيع الذي كثيرا ما تمناه وانتظره؛ وعند الثنية حيث لا يرونه؛ استقبل بوجهه البيت؛ ثم دعا بهؤلاء الكلمات؛ ورفع يديه؛ فقال: {ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون}**إبراهيم37**.وجعلت أم إسماعيل ترضع وليدها وتشرب مما معهم من ماء حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش إبنها، وجعلت تنظر إليه وهو يتلوي. فانطلقت هاجر حتى صعدت الصفا لتنظر هل ترى شيئا فلم تر شيئا، فانحدرت إلى الوادي حتى أتت المروة فاستشرفت هل ترى شيئا فلم تر شيئا، ففعلت ذلك سبع مرات؛ فذلك أصل السعي. ثم جاءت إسماعيل وهو يدحض الأرض بقدميه وقد نبعت العين وهي زمزم؛ فجعلت تفحص الأرض بيدها عن الماء وكلما اجتمع أخذته وجعلته في سقائها؛ قال؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: رحم الله هاجر لو تركتها كانت عينا معينا.(1) **وفي رواية:** يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم؛ أو قال: لو لم تغرف من الماء لكانت عينا معينا.(2) **قيل:** إن الذي أنبع الماء جبرائيل؛ فإنه نزل إلى هاجر وهي تسعى في الوادي فسمعت حسه؛ فقالت: قد اسمعتني فأغثني فقد هلكت أنا ومن معي؛ فجاء بها إلى موضع زمزم، فضرب بقدمه، ففارت عينا؛ فتعجلت فجعلت تفرغ في شنها. فقال لها: لا تخافي الظمأ.(3)وكانت قبيلة جرهم بواد قريب من مكة ولزمت الطير الوادي حين رأت الماء فلما رأت جرهم الطير لزمت الوادي؛ قالوا: ما لزمته إلا وفيه ماء، فجاؤوا إلى هاجر فقالوا: لو شئت لكنا معك فآنسناك والماء ماؤك؟ قالت: نعم. فكانوا معها حتى شب إسماعيل وماتت هاجر فتزوج إسماعيل من امرأة من جرهم فتعلم العربية منهم هو وأولاده فهم العرب المتعربة.(4)

إبراهيم يزور إسماعيل:

ذهب إبراهيم ليزور ولده إسماعيل؛ فلم يجده فسأل امرأته عنه؛ فقالت: خرج يبتغي لنا. ثم سألها عن عيشتهم وهيئتهم؟ فقالت: نحن بشر؛ نحن في ضيق وشدة؛ وشكت إليه. قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام وقولي له يغير عتبة بابه. فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئا؛ فقال:

==

1: خرجه السيوطي عن أبي هريرة وصححه الألباني

2: خرجه السيوطي عن أنس وصححه الألباني

3: ابن الأثير- 81/1

4: ابن الأثير- 80/1

هل جاءكم من أحد؟ فقالت: نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا، فسألنا عنك فأخبرته، وسألني كيف عيشُنا فأخبرته أنّا في جهد وشدة. قال: فهل أوصاك بشئ؟ قالت: نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول: غيّر عتبة بابك. قال: ذاك أبي وأمرني أن أفارقك، فالحقي بأهلك. فطلقها وتزوج منهم أخرى. ولبث عنهم إبراهيم ما شاء الله، ثم أتاهم بعد، فلم يجده؛ فدخل على امرأته، فسألها عنه؛ فقالت: خرج يبتغي لنا. قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم؛ فقالت: نحن بخير وسعة؛ وأثنت على الله. فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم. قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء. قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء.. قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام، ومريه يثبت عتبة بابه. فلما جاء إسماعيل؛ قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم، أتانا شيخ حسن الهيئة –وأثنت عليه- فسألني عنك فأخبرته، فسألني كيف عيشنا فأخبرته أنّا بخير. قال: فأوصاك بشئ؟ قالت: نعم، هو يقرأ عليك السلام، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك. قال: ذاك أبي، وأنت العتبة، وأمرني أن أمسكك. ثم لبث عنهم ما شاء الله، ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبري نبلا له تحت دوحة قريبا من زمزم. فلما رآه قام إليه، فصنعا كما يصنع الولد بالوالد، والوالد بالولد؛ ثم قال: يا إسماعيل، إن الله أمرني بأمر. قال: فاصنع ما أمرك ربك. قال: وتعينني عليه؟ قال: أعينك. قال: فإن الله أمرني أن أبني ههنا بيتا. وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها. قال: فعند ذلك رفعا القواعد من البيت.[1]

إبراهيم وبناء الكعبة:

قيل إن في كل سماء بيتا يعبد الله فيه أهل كل سماء، وهو فيها كالكعبة لأهل الأرض. ونحن نعلم أن مكان البيت كان مهيأ له ومعين منذ خلق الله تعالى السماوات والأرض؛ كما قال صلى الله عليه وسلم: هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض؛ فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة.[2] ولم يقل أحد أن الكعبة كانت مبنية قبل الخليل إبراهيم؛ إلا أن مكانها كما قلنا كان معلوم؛ فقيل: أن آدم نصب عليه قبة، وأن الملائكة قالوا له: قد طفنا قبلك بهذا البيت. وأن سفينة نوح طافت به أربعين يوما، أو نحو ذلك ولكن كل هذه أخبار عن بني إسرائيل، وقد قررنا أنها لا تصدق ولا تكذب، فلا يحتج بها، فأما إن ردها الحق فهي مردودة.[3]

==

1: ابن كثير- 360/1

2: خرجه النسائي في سننه عن ابن عباس وصححه الألباني- 203/5

3: ابن كثير- 379/1

وقد قال تعالى: {إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدي للعالمين} أمر الله تعالى خليله أن يبني أول مسجدا في الأرض؛ فاستعان بولده المبارك إسماعيل وأخذا يبنيان البيت؛ فلما ارتفع البناء عن طول إبراهيم طلب الأخير من ولده أن يأتيه بحجر كبير يقف عليه ليطول ما ارتفع بناءه عن قامته؛ وهو المعروف بمقام إبراهيم. وهما يقولان: {ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم} وقد كانت آثار قدمي الخليل باقية في الصخرة إلى أول الإسلام.

وروي: لما أمر الله إبراهيم وإسماعيل أن يبنيا البيت لم يدريا أين مكانه، فضاق إبراهيم بذلك ذرعا. فقال بعض أهل العلم: بعث الله إليه السكينة لتدله على موضع البيت، فمضت به السكينة ومع إبراهيم هاجر زوجته وابنه إسماعيل وهو طفل صغير. وقال بعضهم: بل بعث الله إليه جبرائيل عليه السلام، حتى دله علي موضعه، وبين له ما ينبغي أن يعمل.[1]

وبعضهم قال: أن السكينة هي ريح مخصوصة؛ **قال السدى:**حتى بعث الله ريحا يقال لها الخجوجُ لها جناحان ورأس في صورة حية، فكنست لهما ما حول الكعبة عن أساس البيت الأول، وأتبعاها بالمعاول يحفران حتى وضعا الأساس؛ **وذلك حين يقول تعالى:** وإذ بوأنا لابراهيم مكان البيت.[2]

فلما بلغا القواعد وبنيا الركن، قال إبراهيم لاسماعيل: يا بنى اطلب لى حجرا حسنا أضعه هاهنا. قال يا أبت إنى كسلان تعب. قال على ذلك فانطلق، وجاءه جبريل بالحجر الأسود من الهند، وكان أبيض ياقوتة بيضاء. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نزل الحجر الأسود من الجنة وهو أشد بياضا من اللبن فسودته خطايا بني آدم.[3] فجاءه إسماعيل بحجر فوجده عند الركن. فقال: يا أبت من جاءك بهذا؟ قال: من لم يكلني إليك يا بني.[4]

وقد كانت الكعبة على بناء الخليل مدة طويلة، ثم بعد ذلك بنتها قريش، فقصرت بها عن قواعد إبراهيم من جهة الشمال ستة أذرع أو سبعة أذرع من ناحية الشام على ماهى عليه اليوم؛ قالوا: قصرت بهم النفقة. أي لم يتمكنوا أن يبنوه على قواعد إبراهيم وجعلوا للكعبة بابا واحدا من ناحية المشرق وجعلوه مرتفعا لئلا يدخل إليها كل أحد فيدخلوا من شاؤوا ويمنعوا من شاؤوا. **وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأم المؤمنين عائشة:** ألم تري أن قومك حين بنوا الكعبة

==

1: الطبري- 87/1

2: ابن كثير- 381-381/1

3: خرجه الترمذي في جامعه عن ابن عباس وصححه الألباني- 226/3

4: الطبري- 88/1

اقتصروا عن قواعد إبراهيم؟ فقالت عائشة: يا رسول الله؛ ألا تردها على قواعد إبراهيم؟ فقال: لولا حدثان قومك بالكفر لفعلت.[1] **وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة**؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لها: ألم تري أن قومك قصرت بهم النفقة؟ ولولا حدثان قومك بكفر لنقضت الكعبة وجعلت لها بابا شرقا وبابا غربيا وأدخلت فيها الحجر. **وفي رواية:** لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية لأنفقت كنز الكعبة في سبيل الله؛ ولجعلت بابها بالأرض؛ ولأدخلت فيها الحجر.[2] ولهذا لما تمكن ابن الزبير بناها على ما أشار به رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وجاءت في غاية البهاء والحسن والسناء كاملة على قواعد الخليل لها بابان ملتصقان بالأرض شرقا وغربا يدخل الناس من هذا ويخرجون من الآخر.[3] فلما قتله الحجاج في سنة ثلاث وسبعين كتب إلى عبد الملك بن مروان الخليفة إذ ذاك، فاعتقدوا أن ابن الزبير إنما صنع ذلك من تلقاء نفسه. فأمر بردها إلى ما كانت عليه، فنقضوا الحائط الشامي وأخرجوا منها الحجر، ثم سدوا الحائط وردموا الأحجار في جوف الكعبة، فارتفع بابها الشرقي وسدوا الغربي بالكلية، كما هو مشاهد إلى اليوم. ثم لما بلغهم أن ابن الزبير إنما فعل هذا لما أخبرته عائشة أم المؤمنين ندموا على ما فعلوا، وتأسفوا أن لو كانوا تركوه وما تولى من ذلك. ثم لما كان في زمن المهدى بن المنصور استشار الإمام مالك بن أنس في ردها على الصفة التى بناها ابن الزبير فقال له إنى أخشى أن يتخذها الملوك لعبة. يعنى كلما جاء ملك بناها على الصفة التى يريد. فاستقر الأمر على ماهى عليه اليوم.

إبراهيم يختتن ويختن ولده:

عند أهل التوراة؛ أن إبراهيم أمره الله بأن يختن ولده إسماعيل وكل من عنده من العبيد وغيرهم؛ فختنهم؛ وذلك بعد مضى تسع وتسعين سنة من عمره؛ فيكون عمر إسماعيل يومئذ ثلاث عشرة سنة.[4] **وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:** اختتن إبراهيم وهو ابن ثمانين سنة بالقدوم.[5] **والقدوم:** هو آلة للنجر والنحت. كالشاكوش أحد طرفي مطرقته مسطح والآخر حاد. **وقيل:** القدوم موضع أو مكان؛ وهي قرية فلسطينية تتبع محافظة قلقيلية؛ تقع على بعد 16 كيلو متر غرب مدينة نابلس. وكلمة قدوم تحريف لكلمة قداما السريانية بمعنى السبّاق أو المتقدم.

==

1: خرجه النسائي عن عائشة وصححه الألباني- 214/5

2: خرجه السيوطي عن عائشة وصححه الألباني

3: صحيح السيرة النبوية- الألباني- ص45

4: ابن كثير- 361/1

5: خرجه السيوطي عن أبي هريرة وصححه الألباني

إبراهيم والذبيح:

علمنا أن نبي الله إبراهيم ظل حتى الثمانين لا ولد له؛ فسأل ربه أن يهبه ولدا صالحا؛ فبشره الله تعالى بغلام حليم؛ وهو إسماعيل؛ لأنه أول ولد له على رأس ست وثمانين سنة من عمر الخليل. وهذا مالا خلاف فيه بين أهل الملل؛ أنه أول ولده وبكره.[1] **وقوله تعالى:** فلما بلغ معه السعي. **أي:** شب وصار يسعى في مصالحه كأبيه. فلما كان هذا رأى إبراهيم في المنام أنه يؤمر بذبح ولده هذا -ورؤية الأنبياء وحي-. وبالطبع كل صاحب دين وكتاب -ولن أقول نبي أو رسول- يعلم بالضرورة أن قتل النفس بغير النفس أو بحق هو ظلم وتعدي على حرمات الله تعالى الذي حرم على عباده قتل النفس إلا بالنفس، فإبراهيم الخليل قد أمره ربه في المنام في رؤية أنه يذبح ابنه الوحيد إسماعيل، والذي أتاه على الكبر؛ ولا يعلم حب الأب العجوز لأبنه الذي أتاه على الكبر إلا أب عجوز. فماذا فعل إبراهيم صلى الله عليه وسلم: أقال لربه لا لن أفعل القتل حرام، وأي قتل؟ إن الله يريده أن يذبح ابنه! لا والله أبداً ما فعل، ذهب إلى ابنه وقال له يا ولدي إني رأيت في المنام أني أذبحك، فانظر ماذا ترى؟ لا يريد إبراهيم أن يأخذ ابنه قسرا ويذبحه قهرا. فهل قال له ولده الراشد: أتذبحني يا أبي وأنا ولدك الوحيد؟! لا والله؛ قال له في أدب جم: افعل ما أمرك به ربنا يا أبي ستجدني إن شاء الله من الصابرين؟ وعندما سمعت الأم هاجر أن زوجها سوف يذبح ابنها الوحيد، لأنه رأى مجرد رؤية، هل صرخت في الناس أيها الناس إني زوجي يريد ذبح ابني لمجرد رؤية في منام؟ لا والله فهي مثال ونموذج للمرأة المؤمنة الصادقة المخلصة لربها، قالت له مثل ما قال ابنها: افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين، حتى ذهب إبراهيم إلى مكان الذبح الذي رآه في المنام، يذبح فيه ابنه الوحيد، حتى إذا ما وضع السكين على رقبته ليذبحه قال له ولده الطاهر: لا تذبحني يا أبي ووجهك لوجهي وعيناك في عيني، حتى لا تضعف وتهن وتعصى أمر الله بل اذبحني من خلف ظهري. وبالفعل وضع إبراهيم السكين على قفا ولده ليذبحه، وبالفعل ذبحه بالسكين، ولكن السكين لم تقطع جلد ولا لحم ولم تنزف دم؛ **قال السدي وغيره:** أمر السكين على حلقه فلم تقطع شيئا. **ويقال:** جُعل بينها وبين حلقه صفيحة من نحاس.[2] فعند ذلك نودي من الله عز وجل: أن يا إبراهيم. قد صدقت الرُّءيا. **أي:** حصل المراد من اختبارك وطاعتك؛ ومبادرتك إلى أمر ربك. وفديناه بذبح عظيم. **أي:** وجعلنا فداء ذبح ولده ما يسره الله تعالى له من

==

1: ابن كثير- 363/1

2: ابن كثير- 365/1

العوض عنه. والمشهور عن الجمهور أنه كبش قد رعى في الجنة أربعين خريفا. **وقيل:** كان كبشا أقرن أعين أبيض.[1] **وعن ابن عباس:** وهو الكبش الذي قربه ابن آدم فتقبل منه.[2] **وقيل:** أن قرني هذا الكبش ظلا في البيت فلما احترق البيت احترقا.[3]

ما كان الله تعالى ليسمح بذبح الوالد لولده أبدا؛ بل هو اختبار لرجل عظيم من الناس، هو إبراهيم أبو الأنبياء، وكذلك اختبار لتلك العائلة المطهرة المقدسة عن صغائر البشر وشهواتها، ابتداء من ابنه جد رسول المسلمين إسماعيل عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، وكذلك لجدته الطاهرة المقدسة هاجر المصرية. فنجحوا كلهم في الاختبار ففازوا ببركة الله تعالى ورضاه وحبه إليهم، فترك ذكرهم في العالمين فما من أهل كتاب لا يعلمون إبراهيم الخليل، وما من أحد منهم إلا ويتشرف به في دينه، فقالت اليهود هو كان يهوديا، وقالت النصارى هو كان مسيحيا وقالت المسلمون هو مسلما، والذي نتفق فيه كلنا أن إبراهيم كان من قبل موسى وعيسى ومحمد، فكان دينه الحنيفية وهي دين التوحيد الفطري الرباني لرب المخلوقات ومحدث المحدثات، وهذا هو فحوى كل الأديان السماوية التي تقر بإله واحد فوق كل البشر، وهذا هو فحوى ومفهوم دين الإسلام الدين الخاتم والأخير في سلسلة الأديان السماوية.

فلما أطاع إبراهيم ربه كافأه الله تعالآ بنعم لا تعد ولا تحصى –وهذا هو حال كل مؤمن- منها ما ذكرنا من إبقاء ذكره الطاهر المطهر في كل كتب العالمين الموحدين برب المخلوقات من يهود ونصارى ومسلمين. كذلك بأن بشره بولد آخر على ولده هذا؛ وكذلك بشره بولد هذا الولد، فبشره الله تعالى بإسحق ابن سارة الكريمة الطاهرة، ومن إسحق بشره بيعقوب -إسرائيل-، والذي خرج من نسله كل بني إسرائيل، وكافة أنبياء بني إسرائيل من يوسف وموسى وهارون وعيسى عليهم وعلى نبينا وعلى كل نبي من أنبياء الله تعالى الصلاة والسلام.

==

1: ابن الأثير- 87/1

2: ابن كثير- 365/1

3: ابن كثير- 366/1

مولد إسحق وبناء المسجد الأقصى:

عندما كانت الملائكة ذاهبة إلى سدوم قرية قوم لوط لإنزال عذاب ربهم المستحق عليهم مروا ببيت الخليل إبراهيم؛ **قال تعالى:** {ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام. فلما لبث أن جاء بعجل حنيذ. فلما رءا أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط. وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب. قالت: ياويلتي أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا إن هذا لشيء عجيب}**هود69-72.**

قيل: الملائكة كانوا ثلاثة؛ جبريل وميكائيل وإسرافيل؛ ولما نزلوا على إبراهيم ضيوفا؛ شوى لهم عجلا سمينا حنيذا. وعجلا حنيذ: يعني عجلا ناضجا. ولكن لما قدمه إليهم رأى أنهم لا يمدون أيديهم ليأكلوا؛ كما أنهم غرباء ليس عليهم آثار السفر والإعياء من جهده؛ فخاف منهم إبراهيم؛ وعندها طمئنوه وأخبروه خبرهم وبشروه وزوجه بإسحق ومن بعده يعقوب. **وقوله تعالى:** {فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب} دليلا على أن الذبيح هو إسماعيل وليس إسحق. ففي الآية أن الله تعالى بشرهم بإسحق وأنه سيكبر وسيتزوج وسيلد له ولد اسمه يعقوب. ولا يستقيم بعد هذا أن يأمره الله تعالى أن يذبح ولده هذا وهو فتي صغير؟ لا يمكن. **قال ابن كثير:** فقوله تعالى: فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب. دليل على أنها تستمتع بوجود ولدها إسحق، ثم من بعده يولد ولده يعقوب؛ أي يولد في حياتهما، لتقر أعينهما به، كما قرت بوالدة.. **وقال تعالى:** {ووهبنا له إسحق ويعقوب كلا هدينا}**الأنعام84..** وهذا إن شاء الله.[1]

ويؤيد ما سبق؛ ما قاله صلى الله عليه وسلم لما سأله أبي ذر الغفاري؛ فقال: يا رسول الله أي مسجد وضع أول؟ قال: المسجد الحرام. قلت: ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى. قلت: كم بينهما؟ قال: أربعون سنة. ثم الأرض لك مصلى فصل حيث ما أدركتك الصلاة.[2]

وعند أهل الكتاب أن يعقوب عليه السلام هو الذي أسس المسجد الأقصى، وهو مسجد إيلياء، وهو مسجد بيت المقدس، شرفه الله.. فعلى هذا يكون بناء يعقوب بعد بناء الخليل وابنه إسماعيل المسجد الحرام بأربعين سنة سواء.[3]

==

1: ابن كثير- 374/1

2: خرجه ابن ماجه في سننه وصححه الألباني- 248/1

: ابن كثير- 375/1

وفاة سارة وقبر إبراهيم:

توفيت سارة بالشام ولها مائة وسبع وعشرون سنة. **وقيل:** إنها كانت بقرية الجبابرة من أرض كنعان. **وقيل:** عاشت هاجر بعد سارة مدة. والصحيح أن هاجر توفيت قبل سارة كما ذكرنا في مسير إبراهيم إلى مكة وهو الصحيح إن شاء الله.[1] **وقيل:** أن إبراهيم مات فجأة وكذا داود وسليمان؛ **قالوا:** مات إبراهيم عن مائة وخمس وسبعين سنة. **وقالوا:** عن مائتي سنة. فقبره وقبر ولده إسحاق وقبر ولد ولده يعقوب؛ في المربعة التي بناها سليمان بن داود عليه السلام ببلد حبرون، وهو البلد المعروف بالخليل اليوم. وهذا متلقى بالتواتر، أمة من بعد أمة، وجيلا من بعد جيل، من زمن بني إسرائيل وإلى زماننا هذا أن قبره بالمربعة تحقيقا.[2]

أولاد إبراهيم:

نعلم من أولاد إبراهيم الخليل إسماعيل من هاجر القبطية المصرية، وقد كانت ابنة لملك من أهل منف فلما غزاهم أهل عين شمس قتلوهم وسلبوا ملكهم؛ وكانت هاجر ضمن هذا السبي.[3] ثم ولد له إسحاق من سارة ابنة عمه. ثم تزوج بعدها قنطورا بنت يقطن الكنعانية، فولدت له ستة: مدين، وزمران، وسرج (وقيل: سوح)، ويقشان، ونشق، ولم يسمى السادس.[4]

ثم تزوج بعدها حجون بنت أمين؛ فولدت له خمسة: كيسان، وسورج[5]، وأميم، ولوطان، ونافس.[6] **قالوا:** البربر من ولد يقشان، وأهل مدين قوم شعيب من ولد مدين.[7]

==

1: ابن الأثير- 94/1

2: ابن كثير- 405/1

3: الطبري- 294/2

4: وعند ابن الأثير السادس يسمي مدان- 94/1

5: وعند الطبري اسمه شورخ- 106/1

6: ابن كثير- 407/1

7: ابن الأثير- 94/1

لـوط وقـومـه

لله تعالى في الأرض سنن وقوانين لا يجب أن يتجرأ عليها الإنسان فيخرقها، لأن سنن الله تعالى قد كتب الله عليها أن لا تتبدل ولا تتحول أبداً مهما طال الأمد بالناس فوق سطح هذه الأرض: {لَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلا}**فاطر43.** ومن أهم هذه السنن الكونية أن الله تعالى جعل في مخلوقاته زوجين ذكر وأنثى ليسكن كلاً منهما إلى الآخر، ويكون بينهما النسل الذي يكون به عمار الأرض وصلاحها: {وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى} **النجم45.** فإذا ما أتى الشيطان الإنسان وزين له غير ذلك فيجب على الإنسان أن يعلم على الفور أن هذا من عمل الشيطان فدعوته بالفعل مشهورة: {إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاء وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُون} **البقرة169**. ولقد كان أول من خرق سنة الله في خلقه واشتهوا الرجال من دون النساء هم قوم نبي الله لوط: {وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ. إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُون} **80-81 الأعراف.** فقوم لوط هم أول من ابتدعوا هذه الفاحشة العظيمة؛ فاحشة إتيان الذكور للذكور دون النساء اللائي أحلهن الله للرجال حيث تكون الفطرة السوية ويكون النسل. وفاحشة إتيان النساء للنساء؛ وفاحشة إتيان الإنسان للحيوان؛ وأكثر من هذا. **قال تعالى:** {أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل} فكان قطعهم السبيل أنهم كانوا يأخذون المسافر إذا مر بهم ويعملون به ذلك العمل الخبيث وهو اللواطة.[1]

من هو لوط؟

هو نبي الله لوط بن هاران بن تارح. ولوط هو ابن أخى إبراهيم الخليل؛ فإبراهيم وهاران وناحور إخوة. وكان لوط قد نزح عن محلة عمه الخليل بفلسطين بأمره له وإذنه، فنزل بمدينة سدوم من أرض غور زغر بالأردن. وموقعها تحديدا في منطقة البحر الميت التي تمتد على طول الحدود الأردنية الفلسطينية شمال البحر الأحمر.

وقد كانوا مع فعلتهم الشنعاء وشذوذهم يقطعون الطريق، ويخونون الرفيق، ويأتون في ناديهم، وهو مجتمعهم ومحل حديثهم وسمرهم، المنكر من الأقوال والأفعال على إختلاف أصنافه. حتى

==

1: ابن الأثير- 91/1

قيل إنهم كانوا يتظارطون في مجالسهم ولا يستحون من مجالسيهم، وربما وقع منهم الفعلة العظيمة في المحافل ولا يستنكفون، ولا يرعوون لوعظ واعظ ولا نصيحة من عاقل.

فبذل نبي الله لوط عليه السلام الجهد العظيم في وعظهم ونصيحتهم وردهم إلى طريق الرشد والطهر. ولكن بما أجاب قوم لوط نبيهم عندما نهاهم عن هذه الفاحشة المنكرة؟ انظر إلى ردهم: {أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُون} **الأعراف82.** سبحان الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم والسبب المعلن لهذا هو أنهم أناس يتطهرون! أخرجوا لوطًا وأهله من بلادكم؛ إنه ومن تبعه أناس يتنزهون عن إتيان أدبار الرجال والنساء والحيوان؟! هؤلاء هم قوم لوط فلماذا كان يعيش نبي الله لوط بينهم؟

نقول وبالله التوفيق: أن الله لما أنجى نبي الله إبراهيم من مكر الماكرين من قومه أمره أن يخرج هو ومن آمن معه إلى أرض الشام: {وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِين}**الأنبياء71.** وقد كان أول من آمن لنبي الله إبراهيم من الرجال هو ابن أخيه لوط: {فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيم}**العنكبوت26.** الذي هاجر إلى قرية (سدوم) قرية قوم لوط ليدعوهم إلى عبادة الله سبحانه وتعالى.

سكن بينهم نبي الله لوط من باب دعوتهم إلى رب العباد سبحانه وتعالى، فوجدهم من أسوأ أهل الأرض أخلاقا وأخبثهم أفعالا، وصعق عندما وجد لديهم مجلس أو ناد؛ وهو المكان الذي يجتمعون فيه يفعلون فيه كل ما يمكن أن يتخيله الإنسان أو ما لا يتخيله من أفعال المنكر والفواحش: {وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ. أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَر}**العنكبوت28-29.**

نهاهم نبي الله لوط عن هذه الأفعال والفواحش المنكرة ودعاهم إلى تقوى الله وحده لا شريك له: {إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ. إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ. وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ. أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ. وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُون}**الشعراء161-166.**

فما كان جواب قومه علي هذه الدعوة الطيبة التي تدعو الناس إلى الفطرة السوية والسعادة في الدنيا والآخرة؟ هددوه بأن يخرجوه من قريتهم: {قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِين} **الشعراء 167.** ونهوه أن يستقبل أي إنسان في بيته: {قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِين}**الحجر70.** واستعجلوه بالعذاب: {قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِين}**العنكبوت29.** فدعا عليهم نبي الله لوط: {قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِين}**العنكبوت30.** فقرر الله سبحانه وتعالى أن

يرسل إليهم ما كانوا يستعجلون من العذاب، فأرسل مبعوثين رسميين، وهم ثلاثة من أعظم الملائكة قدرا ورتبة بين الملائكة والخلق أجمعين هم جبريل وميكائيل وإسرافيل.

أرسلهم في مهمتين مختلفتين تماما:

الأولى: أرسلهم لنبي الله إبراهيم أبو الأنبياء ليبشروه بالولد الذي انتظره عمر طويل: {نَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ. إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلاماً قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ. قَالُواْ لاَ تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ} **الحجر51-53.**

والمهمة الثانية: هي مهمة تعذيب وتدمير قوم لوط المفسدون الفاسدون: {قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ. قَالُواْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ. إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِين} **الحجر57-60.** المهمة الأولى هي عين الرحمة والمهمة الثانية هي عين العدل والعذاب، فسبحان الله رب العالمين.

أتم المرسلون مهمتهم الأولي بتبشير نبي الله إبراهيم وزوجته سارة رضي الله عنها، وتوجهوا إلى سدوم لإتمام مهمتهم الثانية؛ فتوجهوا إلى آل لوط: {فلَمَّا جَاء آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ. قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُون} **الحجر61-62.** قال لهم نبي الله لوط أنا لا أعرفكم أيها القوم فلم أراكم من قبل من أنتم ولما جئتم إلى هذه القرية الخبيثة أهلها؛ ونصحهم أن يتركوا القرية سريعا فقد كانوا تصوروا في صورة رجال حسن الصورة: {وَلَمَّا أَن جَاءتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعا} **العنكبوت33.** ولما جاءت الملائكة لوطًا ساءه ذلك: لأنه ظنهم ضيوفًا من البشر؛ وحزن بسبب وجودهم لعلمه خبث فعل قومه. فقد توافد القوم على باب بيته يطالبوه بأن يخرج لهم ضيوفه هؤلاء ليفعلوا بهم ما يفعلون بهم من منكر: {وَجَاء أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُون}**الحجر67.** فقد جاء أهل مدينة لوط إلى لوط حين علموا بمن عنده من الضيوف وهم فرحون يستبشرون بضيوفه ليأخذوهم ويفعلوا بهم الفاحشة؛ فقال لهم لوط: إن هؤلاء ضيفي وهم في حمايتي فلا تفضحوني: {قَالَ إِنَّ هَؤُلاء ضَيْفِي فَلاَ تَفْضَحُون}**الحجر68.** {وَاتَّقُوا اللّهَ وَلاَ تُخْزُون}**الحجر69.** قال لهم لوط: خافوا عقاب الله؛ ولا تتعرضوا لهم؛ فتوقعوني في الذل والهوان بإيذائكم لضيوفي: {قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِين} **الحجر70..**

فقال لهم لوط: {قَالَ هَؤُلاء بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِين}**الحجر71.** يقول لهم لوط: هؤلاء بناتي فتزوَّجوهن إن كنتم تريدون قضاء وطركم، ولا تفعلوا ما حرَّم الله عليكم من إتيان الرجال. **فقال سبحانه وتعالى لنبيه محمد عليه السلام:** {لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُون}**الحجر72.** يقسم الخالق بمن يشاء وبما يشاء؛ أما المخلوق فلا يجوز له القسم إلا بالله؛ وقد أقسم الله تعالى بحياة

محمد صلى الله عليه وسلم تشريفًا له. إن قوم لوط في غفلة شديدة يترددون ويتمادون: {قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيد}**هود79.** قالوا: لقد علمتَ من قبلُ أنه ليس لنا في النساء من حاجة أو رغبة؛ وإنك لتعلم ما نريد؛ أي لا نريد إلا الرجال ولا رغبة لنا في نكاح النساء. فقال لهم لوط حين أبوا إلا فعل الفاحشة: لو أن لي بكم قوة وأنصارًا معي؛ أو أركَن إلى عشيرة تمنعني منكم؛ لَحُلْتُ بينكم وبين ما تريدون. {قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيد}**هود80. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:** ورحمة الله على لوط إن كان ليأوي إلى ركن شديد قال: لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد. فما بعث الله بعده نبيا إلا في ذروة من قوم.[1] وذروة معناها كثرة ومنعة من قومه فنبي الله لوط كان وحيدا غريبا بينهم ولهذا استضعفوه، وتخيلوا موقفه العصيب؟ هو يظن ضيوفه بشر، وأي ضيف يكون في حماية ومنعة من يستضيفه فواجب عليه أن يحميهم ويزود عنهم، ولكنه وحيد في قومه كما قلنا فأصبح لا يدري ماذا يفعل أو إلى أين يذهب؟ ولكن من أخبر قوم لوط بقدوم ضيوف إليه؟

الذي فعل هي امرأته: {وَإِنَّ لُوطاً لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ. إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغَابِرِين} **الصافات133-135.**

ولكن لماذا استثني الله تعالى أمرأة نبي الله لوط من رحمته؟

لأنها كانت علي دين أهلها، ولأنها كانت تخبر قومها عن كل من يأتي لزيارة لوط وتبلغهم كل أخباره، ولم ينفعها كون زوجها نبي الله ولم يغني عنها عذاب الله تعالى لذا ضرب الله بها المثل في الكفر: {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا اِمْرَأَةَ نُوحٍ وَاِمْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِين} **التحريم10.** فهي عندما رأت ضيوف نبي الله لوط ذهبت إلى قومها وأخبرتهم من خبرهم. **قال السهيلي:** واسم امرأة لوط والهةُ، واسم امرأة نوح والغةُ.[2]

وقد روي: أنه لما خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قرية لوط، فأتوها نصف النهار، فلما بلغوا نهر سدوم لقوا ابنة لوط تستقي من الماء لأهلها وكانت له ابنتان: اسم الكبرى ريثا واسم الصغرى رعزيا[3]؛ فقالوا لها: يا جارية؛ هل من منزل؟ قالت: نعم، فمكانكم لا تدخلوا حتى آتيكم، فرقت

==

1: خرجه السيوطي عن أبي هريرة وصححه الألباني

2: ابن كثير- 420/1

3: وعند ابن كثير: اسم الكبرى: أريثا، والصغرى: دغوثا- 416/1

عليهم من قومها، فأتت أباها؛ فقالت: يا أبتاه، أرادك فتيان على باب المدينة، ما رأيت وجوه قوم هي أحسن منهم، لا يأخذهم قومك فيفضحوهم. وقد كان قومه نهوه أن يضيف رجلا؛ فقالوا له: خل عنا فلنضف الرجال. فجاء بهم فلم يعلم أحد إلا أهل بيت لوط، فخرجت امرأته فأخبرت قومها؛ فقالت: إن في بيت لوط رجالا ما رأيت مثلهم ومثل وجوههم حسنا قط، فجاءه قومه يهرعون إليه.[1]

فلما ضاق لوط بضيوفه الذين لا يقدر على حمايتهم من قومه الكفار الأغبياء الفاسدون، وضاقت به الدنيا بما رحبت كشف الضيوف عن حقيقة أمرهم وبحقيقة مهمتهم التي أرسلوا من أجلها: {قَالُواْ يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُواْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ}**هود81.**

كشفوا للوط عن أمرهم وعن أمر مهمتهم فطمئنوه أنهم رسل الله إليه وأنهم من الملائكة وليسوا من البشر، وأنهم أتوا ليهلكوا أهل هذه القرية المفسدون بالعذاب الذي استعجلوا به، وأمروه أن يسري بأهله خارج هذه القرية الملعونة في الليل، وأخبروه أنهم كلهم سيهلكون وأن زوجته ستكون من المهلكين، والغريب والعجيب أن كل أهل هذه القرية لم يؤمن منهم أحد مع نبي الله لوط، إذ هم فقط الذين كانوا مؤمنين متطهرين في هذه القرية الهالكة: {فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ}**الذاريات35-36.** وهو بيت لوط عليه السلام.

وقد كان القوم الذين أتوا إلى دار نبي الله لوط مازالوا واقفون أمام الباب يطلبون الضيوف؛ **فيقال:** أن جبريل عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام خرج عليهم فضربهم بطرف جناح من أجنحته فطمس أعينهم فمحيت من وجوههم كأنها لم تكن: {وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ} **القمر37.** وقال الرسل للوط: إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فاسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون. فاخرجهم الله إلى الشام؛ وقال لوط: أهلكوهم الساعة. فقالوا: لن نؤمر إلا بالصبح أليس الصبح بقريب؟

==

1: الطبري- 103/1 و ابن كثير- 416/1

العذاب ينزل بقوم لوط:

في الليل خرج نبي الله لوط هو وأهل بيته وأمرهم أنهم متى خرجوا من القرية وحاق بهم العذاب أمرهم أن لا يلتفتوا إلى الخلف مهما حدث؛ وأخبر أنهم لن يفعلوا أي يلتفتوا إلا امرأته فقط: {قَالُواْ يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُواْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ}**هود81.**

صدر الأمر الإلهي بدمار وهلاك قرية سدوم الملعونة بأهلها وكل ما فيها من شجر وحيوان؛ فكيف عذبهم الله وبما عذبهم؟

عذبهم بالصيحة: {أَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ} **الحجر73.** حلَّتْ بهم صاعقة العذاب وقت شروق الشمس، ويقال إنها صيحة جبريل. وقلبت قراهم فجعل عاليها سافلها: {فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا} **حجر74.** وأمطرهم بحجارة من سجيل -طين متصلب متين-: {وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيل} **حجر74.** قال تعالى: {فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ.مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيد}**هود82-83. والسجيل:** فارسي معرب، وهو الشديد الصلب القوي. منضود: أي يتبع بعضها بعضا في نزولها عليهم من السماء. مسومة: أي معلمة؛ مكتوب علي كل حجر اسم صاحبه الذي يهبط عليه فيدمغه. **قال ابن الأثير:** فلما كان الصبح أدخل جبرائيل -وقيل ميكائيل- جناحه في أرضهم وقراهم الخمس. فرفعها حتى سمع أهل السماء صياح ديكتهم ونباح كلابهم، ثم قلبها فجعل عاليها سافلها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل، فأهلكت من لم يكن بالقرى، وسمعت امرأة لوط الهدة؛ فقالت: واقوماه! فأدركها حجر فقتلها ونجى الله لوطا وأهله إلا امرأته؛ وذكر أنه كان فيها أربعمائة ألف.. **وقيل:** مدائن قوم لوط خمس: سدوم وصبعة وعمرة ودوما وصعوة؛ وسدوم هي القرية العظمى.[1] **وقيل:** كن سبع مدن فمن فيهن من الأمم.. وإنهم كانوا أربعة آلاف ألف نسمة وما معهم من الحيوانات.[2] نجى الله آل لوط إلا امرأته وأهلك أصحاب القرية الملعونة كلهم أجمعون، وترك ما بقى من قريتهم آية لمن تسول له نفسه فعل المنكرات وتكذيب الله ورسله: {وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيم} **الذاريات37.** وقال:{ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ. وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُون}**الصافات137-138.** هلك أصحاب القرية الملعونة الذين تركوا من بعدهم سنة داعرة فاجرة ألا وهي إتيان الذكور

==

1: ابن الأثير- 93/1

2: ابن كثير- 421/1 والطبري- 104/1

والنساء من الدبر وإتيان المنكرات والبهائم وكل فعل مخل منحرف من بعدهم. ولقد لعن الله من يأتي بمثل هذا الفعل ملعون من عمل بعمل قوم لوط أو كما قال رسول الله صلي الله عليه وسلم **عن ابن عباس مرفوعا:** من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به.[1] وذلك بالرجم حتى الموت. **قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:** الذي يعمل عمل قوم لوط قال ارجموا الأعلى والأسفل ارجموهما جميعا.[2] ولهذا عند أبو حنيفة إلى أن اللائط يلقى من شاهق ويُتبع بالحجارة، كما فُعل بقوم لوط. **وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:** إن أخوف ما أخاف على أمتي عمل قوم لوط.[3] محى الله سدوم وأهلها وجعل مكان تلك البلاد بحيرة منتنة لا ينتفع بمائها، ولا بما حولها من الاراضي المتاخمة لفنائها، لرداءتها ودناءتها فصارت عبرة ومثلة وعظة وآية على قدرة الله تعالى وعظمته.

دفاعا عن نبي الله لوط:

نبي الله لوط لم يسلم هو الآخر من الطعن فيه؛ ولا نريد أن نذكر ههنا خرافات اليهود من أنه سكر بمكيدة من ابنتيه وأنه واقعهما وأنهما حملتا منه سفاحا؛ كما جاء في توراتهم المحرفة؛ فهذا الكفر الصريح أقل من أن نخوض فيه فهذا ليس من المقبول لا دينا ولا عقلا.. ولكن بعض الفقهاء والمفكرين الآخرين قد نسبوا إلى نبي الله لوط ما لا يليق به وبأمثاله من أنبياء الله الكرام إما لسوء فهم وإما لقلة علم وهنا وجب علينا توضيح ما وقعوا فيه من خطأ كي يهلك من هلك عن بينة؛ ومن هؤلاء من ذكر قول الله تعالى في نبي الله لوط إذ قال: {قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيد}**هود80. وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم:** رحم الله لوطا لقد كان يأوي إلى ركن شديد. فظنوا أن هذا القول منه عليه السلام إنكار على لوط عليه السلام. وأنه غفل أو جهل أن الله تعالى هو ركنه الشديد. **أيضا قوله:** {هَؤُلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُم}**هود78. قالوا:** هاهو يعرض بناته لرجال قومه ليزنوا بهن.

الدفاع: وهذا لا حجة لهم فيه أما قول لوط عليه السلام: لو أن لي بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد. فليس مخالفا لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: رحم الله لوطا لقد كان يأوي إلى ركن

==

1: رواه أبو داود في سننه وصححه الألباني- 158/4

2: خرجه ابن ماجه في سننه وحسنه الألباني- 856/2

3: خرجه السيوطي عن جابر وصححه الألباني

شديد. بل كلا القولين منهما عليهما السلام حق متفق عليه، لأن لوطا عليه السلام إنما أراد منعة عاجلة يمنع بها قومه مما هم عليه من الفواحش من قرابة أو عشيرة أو أتباع مؤمنين وما جهل قط لوط عليه السلام أنه يأوي من ربه تعالى إلى أمنع قوة وأشد ركن. **قال ابن حزم:** ولا جناح على لوط عليه السلام في طلب قوة من الناس فقد قال تعالى: {وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْض}**البقرة251.** فهذا الذي طلب لوط عليه السلام وقد طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأنصار والمهاجرين منعة حتى يبلغ كلام ربه تعالى فكيف ينكر على لوط أمرا هو فعله عليه السلام، تالله ما أنكر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما أخبر عليه السلام أن لوطا كان يأوي إلى ركن شديد يعني من نصر الله له بالملائكة ولم يكن لوط علم بذلك، ومن اعتقد أن لوطا كان يعتقد أنه ليس له من الله ركن شديد فقد كفر إذ نسب إلى نبي من الأنبياء هذا الكفر، وهذا أيضا ظن سخيف إذ من الممتنع أن يظن برب أراه المعجزات وهو دائبا يدعو إليه هذا الظن. **وأما قوله عليه السلام:** هؤلاء بناتي هن أطهر لكن. فإنما أراد التزويج والوطء في المكان المباح فصح ما قلنا إذ من المحال أن يدعوهم إلى منكر وهو ينهاهم عن المنكر.[1]

==

1: الفصل في الملل والأهواء والنحل- 301/2-302

أَيـوب وصـبـره

ضرب بصبره المثل؛ ولما لا أو ليس ما عاناه أصعب من أن يتحمله بشر؟ فمن هو أيوب ذلك النبي العظيم؟ **قيل:** كان رجلاً من الروم. وهو أيوب بن موص بن رزاح بن العيص بن إسحق بن إبراهيم الخليل.[1] **وقيل:** هو أيوب بن موص بن رغويل بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم.[2] **وحكى ابن عساكر:** أن أمه بنت لوط عليه السلام.[3]

والصحيح: أنه من سلالة العيص بن إسحاق. وامرأته؛ **قيل:** اسمها ليا بنت يعقوب. **وقيل:** رحمة بنت أفرائيم بن يوسف بن يعقوب. وهذا أشهر.[4]

والآن نسأل: ترى ما حال أحدنا لو كان غنياً فأفقره الله وأعوزه حتى للقمة طعام؟ أو ما حال أحدنا لو مات كل أولاده وهو على عين الحياة فلم يبقى له ولداً على كثرتهم؟ أو ما حال أحدنا لو أصابه مرضاً عضال يأكل لحمه ولا يجد له أحدهم دواء له ولا طبيب والألم يعتصره؟ كل هذا وأكثر أصاب نبي الله أيوب عليه السلام. **قال علماء التفسير والتاريخ وغيرهم:** كان أيوب رجلاً كثير المال من سائر صنوفه وأنواعه: من الأنعام والعبيد والمواشى، والأراضي المتسعة، وكان له أولاد كثير. فسلب منه ذلك جميعه، وابتلى في جسده بأنواع من البلاء ولم يبق منه عضو سليم؛ وهو في ذلك كله صابر محتسب، ذاكر لله عزوجل في ليله ونهاره وصباحه ومسائه. وطال مرضه حتى عافه الجليس، وأوحش منه الأنيس، وأخرج من بلده وألقي على مزبلة خارجها، وانقطع عنه الناس.[5] كل هذا يحدث له ويلقي على مزبلة خارج القرية وهو الإنسان النبي الكريم على الله؟ ولم يزد هذا كله أيوب عليه السلام إلا صبرا واحتسابا وحمدا وشكرا حتى إن المثل ليضرب بصبره عليه السلام، ويضرب المثل أيضا بما حصل له من أنواع البلايا.

وقد روي في الإبتلاء العظيم الذي حدث له: إن إبليس لعنه الله سمع تجاوب الملائكة بالصلاة على أيوب، وذلك حين ذكره الله تعالى وأثنى عليه، فأدركه البغي والحسد، فسأل الله أن يسلطه عليه ليفتنه عن دينه. فسلطه الله على ماله دون جسده وعقله.

==

1: ابن كثير- 506/1

2: الطبري- 109/1

3: تاريخ دمشق- 58/1

4: ابن كثير- 506/1

5: ابن كثير- 507/1

وجمع إبليس عفاريت الشياطين وعظماءهم، وكان لأيوب البثنية من الشام كلها بما فيها بين شرقها وغربها، وكان له ألف شاة برعاتها، وخمسمائة فدان يتبعها خمسمائة عبد، لكل عبد امرأة وولد ومال، ويحمل كل آلة كل فدان أتان **(أنثى الحمار)** لكل أتان ولد بن اثنين وثلاثة وأربعة وخمسة وفوق ذلك. فلما جمعهم إبليس؛ قال: ماذا عندكم من القومة والمعرفة؟ فإني سلطت على مال أيوب، فهي المصيبة الفادحة والفتنة التي لا يصبر عليها الرجال. فقال كل من عنده قوة على إهلاك شئ ما عنده، فأرسهلم فأهلكوا ماله كله.

وأيوب في كل ذلك يحمد الله ولا يثنيه شيء أصيب به من ماله عن الجد في عبادة الله تعالى والشكر له على ما أعطاه، والصبر على ما ابتلاه به.

فلما رأى ذلك من أمره إبليس لعنه الله سأل الله تعالى أن يسلطه على ولده، فسلطه عليهم، ولم يجعل له سلطان على جسده وقلبه وعقله؛ فأهلك ولده كلهم، ثم جاء إليه متمثلا بمعلمهم الذي كان يعلمهم الحكمة جريحا مشدوخا يرققه حتى رق أيوب فبكى، فقبض قبضة من تراب فوضعها على رأسه، فسر بذلك إبليس، واغتنمه من أيوب عليه السلام. ثم إن أيوب تاب واستغفر، فصعدت قرناءه من الملائكة بتوبته فبدروا إبليس إلى الله عز وجل. فلم يثن أيوب عليه السلام ما حل به من المصيبة في ماله وولده عن عبادة ربه، والجد في طاعته، والصبر على ما ناله.

سأل الله عز وجل إبليس أن يسلطه على جسده، فسلطه على جسده خلا لسانه وقلبه وعقله، فإنه لم يجعل له على ذلك منه سلطانا، فجاءه وهو ساجد، فنفخ في منخره نفخة اشتعل منها جسده، فصار من جملة أمره إلى أن أُنت جسده، فأخرجه أهل القرية من القرية إلى كناسة خارج القرية لا يقربه أحد إلا زوجته. وكانت زوجته تختلف إليه بما يصلحه وتلزمه، وكان قد اتبعه ثلاثة نفر على دينه، فلما رأوا ما نزل به من البلاء رفضوه واتهموه من غير أن يتركوا دينه، يقال أحدهم بلدد، وللآخر اليفز، وللثالث صافر. فانطلقوا إليه وهو في بلائه فبكتوه، فلما سمع كلامهم أقبل على ربه يستغيثه ويتضرع إليه، فرحمه ربه ورفع عنه البلاء، ورد عليه أهله وماله ومثلهم معهم؛ وقال له: اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب. فاغتسل به فعاد كهيئته قبل البلاء في الحسن والجمال.[1]

وعن مجاهد أنه قال: كان أيوب عليه السلام أول من أصابه الجدرى.[2]

===

1: الطبري- 110/1

2: ابن كثير- 508/1

وقد اختلفوا في مدة بلواه على أقوال: فزعم وهب بن منبه أنه ابتلى ثلاث سنين لا تزيد ولا تنقص. **وقال أنس:** ابتلى سبع سنين وأشهرا، وألقب على مزبلة لبنى إسرائيل تختلف الدواب في جسده حتى فرج الله عنه وأعظم له الأجر وأحسن الثناء عليه. **وقال حميد:** مكث في بلواه ثمانية عشرة سنة.[1] **والأرجح:** أنها كانت سبع سنوات؛ فقد روي: أنه لما ابتلاه الله واشتد البلاء؛ قالت امرأته: إنك رجل مجاب الدعوة فادع الله أن يشفيك؛ فقال: كنا في النعماء سبعين سنة فلنصبر في البلاء سبعين سنة؛ والله لئن شفاني الله لأجلدتك مائة جلدة. **وقيل:** إنما أقسم ليجلدها لأن إبليس ظهر لها؛ وقال: بم أصابكم ما أصابكم؟ قالت: بقدر الله. قال: وهذا أيضا بقدر الله فاتبعيني فاتبعته؛ فأراها جميع ما ذهب منهم في واد؛ وقال: اسجدي لي وأرد عليكم. فقالت: إن لي زوجا استأمره. فلما أخبرت أيوب؛ قال: ألم تعلمي أن ذلك الشيطان؟ لئن شفيت لأجلدنك مائة جلدة وأبعدها، وقال لها: طعامك وشرابك عليّ حرام لا أذوق مما تأتيني به شيئا، فابعدي عني فلا أراك؛ فذهبت عنه. فلما رأى أيوب أن امرأته قد طردها وليس عنده طعام ولا شراب ولا صديق خر ساجدا؛ وقال: رب إني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين. كرر ذلك؛ فقيل له: ارفع رأسك فقد استجيب لك، اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب. ورد الله إليه جسده وصورته. وأما امرأته؛ فقالت: كيف أتركه وليس عنده أحد، يموت جوعا وتأكله السباع؟ فرجعت إليه، فرأت أيوب وقد عوفي فلم تعرفه فعجبت حيث لم تره على حاله؛ فقالت له: يا عبد الله! هل رأيت ذلك الرجل المبتلى الذي كان ههنا؟ قال: وهل تعرفينه إذا رأيتيه؟ قالت: نعم. قال: هو أنا. فعرفته.

وقيل: إنما قال مسني الضر لما وصل الدود إلى لسانه وقلبه وخاف أن يبطل عن ذكر الله تعالى والفكر.. ولما عوفي أمره الله أن يأخذ عرجونا من النخل فيه مائة شمراخ فيضرب به زوجته ليبر من يمينه ففعل ذلك.[2]

وقيل: تساقط لحمه حتى لم يبق إلا العظم والعصب، فكانت امرأته تأتيه بالرماد تفرشه تحته، وكانت تخدم الناس بالأجر وتطعم أيوب. ثم إن الناس لم يكونوا يستخدمونها، لعلمهم أنها امرأة أيوب، خوفا أن ينالهم من بلائه أو تعديهم بمخالطته، فلما لم تجد أحدا يستخدمها، فماذا تفعل؟ باعت لبعض بنات الأشراف إحدى ضفيرتها بطعام طيب كثير، فأتت به أيوب، فقال من أين لك هذا؟ وأنكره، فقالت: خدمت به أناسا. فلما كان الغد لم تجد أحداً فباعت الضفيرة

==

1: ابن كثير- 509/1

2: ابن الأثير- 99/1-100

الأخرى بطعام فأتته به، فأنكره أيضاً، وحلف لا يأكله حتى تخبره من أين لها هذا الطعام؟ فكشفت عن رأسها خمارها، فلما رأى رأسها محلوقاً قال في دعائه:{أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِين} **ص83. وفي رو اية أخرى:** كان لأيوب أخوان، فجاء يوما فلم يستطيعا أن يدنوا منه من ريحه، فقاما من بعيد، قال أحدهما لصاحبه: لو كان الله علم من أيوب خيرا ما ابتلاه بهذا. فجزع أيوب من قولهما جزعا لم يحزع مثله من شئ قط، فقال: اللهم إن كنت تعلم أنى لم أبت ليلة قط شبعانا وأنا أعلم مكان جائع فصدقني، فصدق من السماء وهما يسمعان. ثم قال: اللهم إن كنت تعلم أنى لم يكن لى قميصان قط وأنا أعلم مكان عار فصدقني. فصدق من السماء وهما يسمعان. ثم قال: اللهم بعزتك وخر ساجدا، فقال: اللهم بعزتك لا أرفع رأسي أبدا حتى تكشف عنى، فما رفع رأسه حتى كشف عنه. فأوحى الله إلى أيوب في مكانه أن: اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب. **قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:** بينا أيوب يغتسل عريانا خر عليه جراد من ذهب؛ فجعل أيوب يحثي في ثوبه فناداه ربه تبارك وتعالى: يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى؟ قال: بلى وعزتك ولكن لا غنى بي عن بركتك.[1] **قيل:** أنزل الله إليه ملكا فقال: يا أيوب! إن الله يقرئك السلام لصبرك على البلاء؛ اخرج إلى أندرك **(مستودع الحبوب).** فخرج إليه فبعث الله سحابة فألقت عليه جرادا من ذهب؛ وكانت الجرادة تذهب فيتبعها حتى يردها في أندره. فقال الملك: أما تشبع من الداخل حتى تتبع الخارج؟ فقال: إن هذه البركة من بركات ربي لست أشبع منها، وعاش أيوب بعد أن رفع عنه البلاء سبعين سنة.[2]

قال ابن عباس: وألبسه الله حلة من الجنة فتنحى أيوب وجلس في ناحية، فجاءت امرأته فلم تعرفه، فقالت: يا عبد الله: أين ذهب هذا المبتلى الذى كان هاهنا ؟ لعل الكلاب ذهبت به أو الذئاب، وجعلت تكلمه ساعة، فقال: ويحك أنا أيوب! قالت: أتسخر منى يا عبد الله؟ فقال: ويحك أنا أيوب قدرد الله على جسدي.[3]

وقال ابن عباس: ورد الله عليه ماله وولده بأعيانهم، ومثلهم معهم. **وقال وهب بن منبه:** أوحى الله إليه: قد رددت عليك أهلك ومالك ومثلهم معهم، فاغتسل بهذا الماء فإن فيه شفاءك. **وقوله:** اركض برجلك؟ أي اضرب الأرض برجلك، فامتثل ما أمر به. فأنبع الله له عينا باردة الماء، وأمر أن

==

1: خرجه السيوطي عن أبي هريرة وصححه الألباني

2: ابن الأثير- 100/1

3: ابن كثير- 512/1

يغتسل فيها ويشرب منها، فأذهب الله عنه ما كان يحده من الألم والأذى، والسقم والمرض، الذى كان في جسده ظاهرا وباطنا، وأبدله الله بعد ذلك كله صحة ظاهرة وباطنة، وجمالا تاما ومالا كثيرا: حتى صب له من المال صبا، مطرا عظيما جرادا من ذهب. وأخلف الله له أهله، كما قال تعالى:

وآتيناه أهله ومثلهم معهم. **فقيل:** أحياهم الله بأعيانهم. **وقيل:** آجره فيمن سلف، وعوضه عنهم في الدنيا بدلهم وجمع له شمله بكلهم في الدار الآخرة. **وقوله:** رحمه من عندنا. **أي:** رفعنا عنه شدته وكشفنا ما به من ضر. رحمة منا به ورأفة وإحسانا. **وقوله:** وذكرى للعابدين. **أي:** تذكرة لمن ابتلى في جسده أو ماله أو ولده، فله أسوة بنبى الله أيوب: حيث ابتلاه الله بما هو أعظم من ذلك فصبر واحتسب حتى فرج الله عنه.[1]

وقد ذكر ابن جرير وغيره من علماء التاريخ: أن أيوب عليه السلام لما توفى كان عمره ثلاثا وتسعين سنة.[2] وقيل إنه عاش أكثر من ذلك.

وقد روى ليث عن مجاهد ما معناه: أن الله يحتج يوم القيامة بسليمان عليه السلام على الأغنياء، وبيوسف عليه السلام على الأرقاء، وبأيوب عليه السلام على أهل البلاء.[3]

==

1: ابن كثير- 513/1

2: الطبري- 110/1

3: ابن كثير- 515/1

قوم مدين وشعيب

(أصحاب الأيكة)

أمرنا الله تعالى في محكم كتابه أن نوفي الكيل إذا ما كلنا وأن نوزن بالقسطاس المستقيم: {وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ}**الرحمن9.** وحذرنا سبحانه وتعالى من أن نكون من المطففين وهم: {الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ. وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُون}**المطففين2-3.** وهذا كي لا يعم الغش والفساد المجتمع فيأكل الناس أموالهم بينهم بالباطل، وقد حذرنا ربنا عز وجل من فعل ذلك فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُم}**النساء29.** هذا لو فعله أحدهم كان أمرا مشين فما بالك لو كان المجتمع كله يقوم بهذا الفعل الشائن الذي يخلو من أية أخلاق وأية أمانة؟ أعتقد أن هذا المجتمع الفاسد لا تقوم له قائمة أبداً، **لهذا قال رسول الله صلي الله عليه وسلم:** من غشنا فليس منا والمكر والخداع في النار.[1]

وقد كان من أشهر نماذج هذا المجتمع الفاسد هم قوم مدين بلدة نبي الله شعيب وتعالى لنرى كيف خدعهم الشيطان وغرهم وأوقعهم في العذاب المهين في الدنيا والآخرة.

قوم مدين أو أصحاب الأيكة هم أناس كانوا يعبدون شجرة ويقدسونها من دون الله سبحانه وتعالى. فالأيكة هي الشجر الملتف. وكان أهل مدين قوما عربا، يسكنون مدينتهم مدين، التي هي قرية من أرض معان من أطراف الشام مما يلي ناحية الحجاز قريبا من بحيرة قوم لوط. وكانوا بعدهم بمدة قريبة. ومدين قبيلة عرفت بهم المدينة، وهم من بني مدين بن مديان بن إبراهيم الخليل.[2] وكانوا فاسدوا الأخلاق والذمم إلى درجة بعيدة فذكر أنهم كانوا يقطعون الطريق ويفرضون على الناس العشور، ويغشون في الميزان فيبخسون الناس أشيائهم ظناً منهم أن هذه أموالهم وهم أحرار فيها يفعلوا بها ما يريدون، ونسوا أن المال مال الله استخلفنا عليه ليختبرنا أنضعه في حلال أم حرام. فأرسل الله فيهم واحد منهم هو نبي الله شعيب عليه السلام ليدعوهم كعادة الأنبياء إلى عبادة الله إله واحد لا شريك له ونبذ عبادة ما سواه، ويدعوهم إلى مكارم الأخلاق: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُه} **الأعراف85.**

==

1: خرجه السيوطي عن ابن مسعود وصححه الألباني

2: ابن كثير- 427/1

وشعيب كان اسمه شعيب يزون.. **قيل:** كان ضرير البصر. **وقيل:** كان ضعيف البصر.[1] **وقيل هو:** شعيب يثرون بن ضيعون بن عنقا بن نابت بن مدين بن إبراهيم. **وقيل:** شعيب بن ميكيل من ولد مدين. **وقيل:** شعيب بن يشجن بن لاوي بن يعقوب.[2] **وقيل:** لم يكن شعيب من ولد إبراهيم، وإنما من ولد بعض من آمن بإبراهيم وهاجر معه إلى الشام، ولكن ابن بنت لوط هي جدة شعيب ابنة لوط.[3]

وكان بعض السلف يسمي شعيباً خطيب الأنبياء. يعني لفصاحته وعلو عبارته، وبلاغته في دعاية قومه إلى الإيمان برسالته. دعاهم شعيب إلى عبادة الله تعالى وإفراد العبودية له وحده ونهاهم عن أفعالهم المشينة التي منها:

عبادة غير الله، بعبادتهم الشجرة: {وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ لَظَالِمِين}**الحجر78.** ظالمين لأنفسهم لكفرهم بالله ورسولهم الكريم.

التلاعب بالموازين وبخس الناس أشيائهم: {فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُم} **الأعراف85.** فأمرهم نبيهم شعيب **بقوله تعالى:** {لاَ تَنقُصُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّيَ أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ. وَيَا قَوْمِ أَوْفُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ. بَقِيَّةُ اللّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظ} **هود84-86.**

الإفساد في الأرض والبغي بغير الحق وقطع طريق الناس: {وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِين. وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً وَاذْكُرُواْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِين}**الأعراف85-86.** كان قوم شعيب قوما طغاة بغاة؛ يجلسون على الطريق يبخسون الناس، يعني ياخذون منهم العشور، وكانوا أول من سن ذلك.[4]

وقد آمن بعض القوم لنبي الله شعيب ولكن الغالبية الباقية لم تؤمن؛ فطلب منهم شعيب أن ينتظروا أمر الله فيحكم الله بينهم: {وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُواْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يْؤْمِنُواْ فَاصْبِرُواْ حَتَّى يَحْكُمَ اللّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِين} **الأعراف87.**

==

1: الطبري- 111/1

2: ابن كثير- 421/1

3: ابن الأثير- 119/1

4: ابن كثير- 430/1

كل ما دعاهم إليه شعيب هو الفطرة السوية التي تتقبلها كل نفس سوية، فهو حريص عليهم ويدعوهم إلى ما فيه خيرهم. فما كان جواب قومه على هذا الكلام الرائع النقي الصادر من قلب محب لهم وحريص عليهم؟ كان الرد المعتاد بالتكذيب والتهديد والوعيد: {قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِين}**الأعراف88.** وقالوا له: {قَالُواْ يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيد}**هود87. قالوا:** يا شعيب أهذه الصلاة التي تداوم عليها تأمرك بأن نترك ما يعبده آباؤنا من الأصنام والأوثان؛ أو أن نمتنع عن التصرف في كسب أموالنا بما نستطيع من احتيال ومكر؟ وقالوا -استهزاءً به-: إنك لأنت الحليم الرشيد. أرأيتم الغباء والكفر؟

فرد عليهم نبي الله شعيب برد بليغ فصيح: {قالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىَ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ. وَيَا قَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ. وَاسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُود}**هود88-90.** فما كان رد قومه علي هذا النصح البليغ؟ انظر إلي العناد والتمسك بالكفر، انظر إلى الشيطان كيف يزين للناس سوء أعمالهم: {قَالُواْ يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيز}**هود91.** واتهموا نبي الله شعيب بأنه مسحور وبأنه كاذب مدعي؛ وناشدوه بأن يعجلهم بالعذاب الذي حذرهم منه: {قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ. وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ. فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِين}**الشعراء185-187.**

بم عذب الله قوم شعيب؟

كان لهم ما استعجلوا من العذاب فأصابهم الله بأنواع متعددة من العذاب والتنكيل جزاء بما كانوا يقولون ويفسدون: **فأخذتهم الرجفة:** {فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِين} **العنكبوت37.** والرجفة هو الزلزال الشديد فأصبحوا في دارهم صَرْعى هالكين.

وأخذتهم الصيحة: {وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مَّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ. كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا أَلاَ بُعْداً لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُود}**هود94-95.**

وأخذهم عذاب يوم الظلة: {فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} **الشعراء189. قال ابن عباس:** بعث الله وقدة وحرا شديدا؛ فأخذ بأنفاسهم فدخلوا أجواف البيوت؛ فدخل عليهم أجواف البيوت فأخذ بأنفاسهم، فخرجوا من البيوت هرابا إلى البرية؛ فبعث الله عز وجل سحابة فأظلتهم من الشمس؛ فوجدوا لها بردا ولذة، فنادى بعضهم بعضا؛ حتى إذا اجتمعوا تحتها أرسل الله عليهم نارا؛ **قال عبد الله بن عباس:** فذاك عذاب يوم الظلة: إنه كان عذاب يوم عظيم.[1] وقد زعم بعض المفسرين كقتادة وغيره؛ أن أصحاب الأيكة أمة أخرى غير أهل مدين فقولهم ضعيف.[2]

ولما خرج منها نبي الله شعيب والتفت فرأى ما أصابهم من عذاب قال: {يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ}**الأعراف93.** دمرت مدين ودمر أصحاب الأيكة الظالمين، وبقت بلدتهم من بعدهم عبرة وعظة لمن عبد غير الله واشتهى الفساد: {وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ. فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ}**الحجر78-79.** فمساكن قوم لوط وشعيب لفي طريق واضح يمرُّ بهما الناس في سفرهم فيعتبرون. فهل اعتبر الناس بنتيجة الغش في الموازين والإفساد في الأرض؛ وتعطيل حدود الله؟

قال بعض العلماء عن قوم شعيب: كانوا كلما عطلوا حدا؛ وسع الله عليهم في الرزق، حتى إذا أراد الله هلاكهم سلط عليهم حرا لا يستطيعون أن يتقاروا ولا ينفعهم ظل ولا ماء، حتى ذهب ذاهب منهم فاستظل تحت ظلة فوجد روحا (ريح)، فنادى أصحابه: هلموا إلى الروح، فذهبوا إليه سراعا؛ حتى إذا اجتمعوا إليها أنزل الله عليهم نارا، فذلك عذاب يوم الظلة.[3]

وعن وهب بن منبه: أن شعيبا عليه السلام مات بمكة ومن معه من المؤمنين، وقبورهم غربي الكعبة، بين دار الندوة ودار بني سهم.[4]

==

1: الطبري- 111/1

2: ابن كثير- 438/1

3: الطبري- 111/1

4: ابن كثير- 440/1

يـونس وقـومه

كان نبي الله يونس يسكن قرية من قرى الموصل يقال لها: نينوى.[1] **وكان قومه يعبدون الأصنام؛** فبعث الله إليهم يونس بالنهي عن عبادتها والأمر بالتوبة إلى الله من كفرهم. **قيل:** لم ينسب أحد من الأنبياء إلى أمه إلا عيسى بن مريم ويونس بن متى وهي أمه.[2]

أخذ نبي الله يونس عليه السلام يدعوا قومه ليل نهار ولكن لم يؤمن معه أحد؛ أي أحد، كذبوه وتمرودوا على كفرهم وعنادهم؛ فأقام فيهم ثلاثا وثلاثين سنة يدعوهم.[3] فلما ضاق بهم خرج من بلدتهم ووعدهم بحلول عذاب الله عليهم بعد ثلاث.

فلما خرج يونس من بين ظهرانيهم، وتحققوا نزول العذاب بهم قذف الله في قلوبهم التوبة والإنابة، وندموا على ما كان منهم إلى نبيهم، فلبسوا المسوح وفرقوا بين كل بهيمة وولدها، ثم عجوا إلى الله عزوجل، وصرخوا وتضرعوا إليه، وتمسكنوا لديه، وبكى الرجال النساء والبنون والبنات والأمهات، وجأرت الأنعام والدواب والمواشى وكانت ساعة عظيمة هائلة. فكشف الله العظيم بحوله وقوته ورأفته ورحمته عنهم العذاب الذى كان قد اتصل بهم سببه، ودار على رؤوسهم كقطع الليل المظلم.[4]

قال ابن الأثير: فلما كانت ليلة الأربعين أيقن يونس بنزول العذاب فخرج من بين أظهرهم، فلما كان الغد تغشاهم العذاب فوق رؤوسهم خرج عليهم غيم أسود هائل يدخن دخانا شديدا، ثم نزل إلى المدينة فاسودت منه سطوحهم، فلما رأوا ذلك أيقنوا بالهلاك، فطلبوا يونس فلم يجدوه، فألهمهم الله التوبة، فأخلصوا النية في ذلك.[5]

ولهذا قال تعالى: {فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِين}**يونس98. أي:** هلا وجدت فيما سلف من القرون قرية آمنت بكمالها، فدل على أنه لم يقع ذلك. **مائة ألف أو يزيدون:** قال تعالى: {أَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ} **الصافات147.** وقد كانوا مائة ألف لا محالة؛ والزيادة قد تكون أعدادا

==

1: الطبري- 213/1

2: ابن الأثير- 271/1

3: نفسه

4: ابن كثير- 18/2

5: ابن الأثير- 271/1

قليلة بالنسبة إلى المائة ألف فلهذا لم يذكر الله عددهم وقال أو يزيدون. وقد تكون الزيادة هي في بطون الأمهات الحوامل؛ بمعنى أن كثير من النساء كن حوامل وبعد مغاضبة يونس ورحيله عن القرية ورجوعه بعد ذلك كن قد وضعن أحمالهن فزاد عدد أهل القرية عن المائة ألف؛ وهذا تأويل قوله: أو يزيدون. والله أعلى وأعلم.

على أية حال أنه عليه السلام لما ذهب مغاضبا بسبب قومه، ركب سفينة في البحر فلجت بهم، واضطربت وماجت بهم وثقلت بما فيها، وكادوا يغرقون على ما ذكره المفسرون؛ **قالوا:** فتشاوروا فيما بينهم على أن يقترعوا، فمن وقعت عليه القرعة القوة من السفينة ليتخففوا منه. فلما اقترعوا وقعت القرعة على نبى الله يونس فلم يسمحوا به، فأعادوها ثانية فوقعت عليه أيضا، فشمر ليخلع ثيابه ويلقي بنفسه، فأبوا عليه ذلك. ثم أعادوا القرعة ثالثة فوقعت عليه أيضا، لما يريده الله به من الامر العظيم. **قال الله تعالى:** {وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ. فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنْ الْمُدْحَضِينَ. فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ} **الصافات139-142.** وذلك أنه لما وقعت عليه القرعة ألقي في البحر، وبعث الله عزوجل حوتا عظيما فالتقمه وأمره الله تعالى أن لا يأكل له لحما ولا يهشم له عظما فليس له برزق، فأخذه فطاف به البحار كلها.[1]

ولما استقر في جوف الحوت حسب يونس أنه قد مات، فحرك جوارحه فتحركت، فإذا هو حى فخر لله ساجدا؛ وقال: يا رب اتخذت لك السجدة في موضع لم يعبدك أحد في مثله. **قالوا:** سمع يونس حسا؛ فقال في نفسه: ما هذا؟ فأوحى الله إليه في بطن إن هذا تسبيح دواب البحر فسبح وهو في بطن الحوت، فسمعت الملائكة تسبيحه؛ فقالوا: ربنا نسمع صوتا ضعيفا بأرض غريبة! فقال: ذلك عبدي يونس عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر. فقالوا: العبد الصالح الذي كان يصعد له كل يوم عمل صالح! فشفعوا له عند ذلك: فنادى يونس في الظلمات: ظلمة البحر، وظلمة بطن الحوت، وظلمة الليل: {أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين}. فأنزل الله فيه: {فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون}**الصافات140.**[2]

وقد اختلفوا في مقدار لبثه في بطنه. **فقيل:** التقمه ضحى ولفظه عشية. **وقيل:** مكث فيه ثلاثا. **وقيل:** أربعين يوما. والله أعلم. **قال تعالى:** {فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُسَبِّحِينَ. لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ. فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ. وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ}**الصافات143-146.** وقوله

==

1: ابن كثير- 19/2

2: ابن الأثير- 279/1

تعالى: فنبذناه: أي ألقيناه بالعراء وهو المكان القفر الذى ليس فيه شئ من الأشجار، بل هو عار منها. وهو سقيم: أي ضعيف البدن؛ كهيئة الطفل حين يولد ليس عليه شئ.

{وأنبتنا على شجرة من يقطين}: قال ابن مسعود وغير واحد: هو القرع.[1]

قال بعض العلماء: في إنبات القرع عليه حكم جمة: منها أن ورقه في غاية النعومة، وكثير وظليل، ولا يقربه ذباب، ويؤكل ثمره من أول طلوعه إلى آخره، نيا ومطبوخا، وبقشره وببزره أيضاً. وفيه نفع كثير وتقوية للدماغ وغير ذلك. ولهذا قال تعالى: {فاستجبنا له فنجيناه من الغم}. أي الكرب والضيق الذى كان فيه: {وكذلك ننجي المؤمنين}. أي: وهذا صنيعنا بكل من دعانا واستجار بنا. وإن ظن أحدهم أنه أفضل من نبي الله يونس إذ صبر هو وأما يونس فقد ضاق بقومه فقد؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قال أنا خير من يونس بن متى فقد كذب.[2]

دفاعا عن نبي الله يونس:

ذكر بعض الفقهاء في قوله تعالى: {وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِين}**الأنبياء87.** وقوله تعالى: {فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُسَبِّحِينَ. لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُون}**الصافات 143-144.** وقوله لنبيه عليه السلام: {فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُوم} **القلم48.** وقوله تعالى: {فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيم}**الصافات142.**

قالوا: ولا ذنب أعظم من المغاضبة لله عز وجل ومن أكبر ذنبا ممن ظن أن الله لا يقدر عليه وقد أخبر الله تعالى أن استحق الذم لولا أن تداركه نعمة الله عز وجل وأنه استحق الملامة وأنه أقر على نفسه أنه كان من الظالمين ونهى الله تعالى نبيه أن يكون مثله.

الدفاع: هذا كله لا حجة لهم فيه فأخبار الله تعالى أن يونس ذهب مغاضبا فلم يغاضب ربه قط؛ ولا قال الله تعالى أنه: غاضب ربه؛ فمن زاد هذه الزيادة كان قائلا على الله الكذب؛ وزائدا في القرآن ما ليس فيه، وهذا لا يحل ولا يجوز أن يظن بمن له أدنى مسكة من عقل أنه يغاضب ربه تعالى فكيف أن يفعل ذلك نبيا من الأنبياء؟ **قال ابن حزم:** فعلمنا يقينا أنه إنما غاضب قومه ولم يوافق ذلك مراد الله عز وجل فعوقب بذلك، وأن كان يونس عليه السلام لم يقصد بذلك إلا

==

1: ابن كثير- 24/2

2: خرجه السيوطي عن أبي هريرة وصححه الألباني

رضاء الله عز وجل. **وأما قوله تعالى:** فظن أن لن نقدر عليه. فليس على ما ظنوه من الظن السخيف الذي لا يجوز أن يظن بضعيفة من النساء أو بضعيف من الرجال إلا أن يكون قد بلغ الغاية من الجهل فكيف بنبي مفضل على الناس في العلم! ومن المحال المتيقن أن يكون نبي يظن أن الله تعالى الذي أرسله بدينه لا يقدر عليه وهو يرى أن آدميا مثله يقدر عليه ولا شك في أن من نسب هذا للنبي صلى الله عليه وسلم الفاضل فإنه يشتد غضبه لو نسب ذلك إليه أو إلى ابنه فكيف إلى يونس عليه السلام الذي يقول فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تفضلوني على يونس بن متى. فقد بطل ظنهم بلا شك وصح أن معنى قوله: فظن أن لن نقدر عليه. أي: لن نضيق عليه؛ كما قال تعالى: وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ. أي: ضيق عليه؛ فظن يونس عليه السلام أن الله تعالى لا يضيق عليه في مغاضبته لقومه إذ ظن أنه محسن في فعله ذلك، وإنما نهى الله عز وجل لمحمد صلى الله عليه وسلم عن أن يكون كصاحب الحوت فنعم نهاه الله عز وجل عن مغضبته قومه وأمره بالصبر على أذاهم وبالمطاولة لهم.

وأما قول الله تعالى أنه استحق الذم والملامة لولا النعمة التي تداركه بها للبث معاقبا في بطن الحوت؛ فهذا نفس ما قلناه من أن الأنبياء عليهم السلام يؤاخذون في الدنيا على ما فعلوه مما يظنونه خيرا وقربة إلى الله عز وجل؛ إذ لم يوافق مراد ربهم وعلى هذا الوجه أقر على نفسه بأنه كان من الظالمين؛ والظلم وضع الشيء في غير موضعه فلما وضع النبي صلى الله عليه وسلم المغاضبة في غير موضعها اعترف في ذلك بالظلم لا على أنه قصده وهو يدري أنه ظلم.[1]

==

1: الفصل في الملل والأهواء والنحل- 2/ 313

موسى وفرعون

بينما كان فرعون مصر والزاعم أنه إله قبطهم نائما رأى فيما يرى النائم نارا عظيمة آتية من بيت المقدس بالشام هجمت على مصر وأهلها وأحرقت بيوتها وقصورها وأهلها من القبط دون بني إسرائيل، فقام من النوم مفزوعا هلعا وسأل بطانته عن تأويل هذا الحلم المفزع؛ فأخبره أحدهم أن بني إسرائيل لديهم نبوءة في دينهم تقول أن من بينهم سيخرج نبيا مزعوما يكون هلاك فرعون وملكه علي يديه. فذعر فرعون وأمر بتشكيل فرقة من الذبّاحين مهمتها هي الطواف على كل دور بني إسرائيل ليحصي نسائهم الحبلى ثم يمر عليهم يوم ولادتهم؛ فمن منهم ولدت ذكراً ذبحوه ومن وضعت منهم أنثى تركوها: {إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِين}**القصص4.**

وهم شعب بني إسرائيل؛ الذين هم من سلالة نبي الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الله. وكانوا إذ ذاك خيار أهل الأرض، وقد سلط الله عليهم هذا الملك الظالم الغاشم الكافر الفاجر، يستعبدهم ويستخدمهم في أخس الصنائع والحرف وأردئها، وأدناها.[1] وكما قال ربنا عز وجل هذا من الاستضعاف والذل والمهانة والظلم وما أظلم وما أفظع من أن يأتي إليك أحدهم وأنت تنتظر مولودك بفارغ الصبر والشوق؛ وما أن يلبث أن يكون بين يديك فيأتي هؤلاء الذباحين ليقتلعوه من بين يديك ليذبحوه أمام ناظريك بمنتهى القسوة والبشاعة: {وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوَءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيم} **البقرة49.** وكان نتيجة ذلك أن قل عدد الذكور في بني إسرائيل إلى حد كبير مما جعل كبراء ملأ فرعون يطلبون منه أن يجد حلاً لهذه المشكلة وإلا لن يجدوا من يستعبدونهم من رجال بني إسرائيل، فأصدر أمرا فرعونيا بذبح الذكور في عام وتركهم في عام آخر؛ وفي عام المسامحة ولد نبي الله هارون، وفي عام الذبح كانت أم موسى حامل في ولدها موسى.

===

1: ابن كثير- 32/2

من هو موسى؟

هو نبي الله موسى بن عمران بن قاهث بن عازر بن لاوى بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام.[1] **وقيل:** موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم.. وولد موسى ولعمران سبعون سنة.. وأم موسى يوحانذا، واسم امرأته صفورا بنت شعيب النبي.[2] **وقيل:** سمي موسى لأنه وجد في ماء وشجر؛ والماء بالقبطية مو والشجر سا.[3]

كانت أم موسى في قمة رعبها أن يأتيها الذباحون ليذبحوا ولدها قرة عينها أمام عينيها يوم مولده وهنا أراد الله سبحانه وتعالى أن يلقن المغرور وكل مغرور أحمق درس مفاده قوله تعالى: {وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِين} **الأنفال30.** فعدو الله فرعون مكر حين أمر بذبح كل ذكور بني إسرائيل حتى لا يخرج من بينهم من تتحقق النبوءة على يديه فيهلك فرعون ملكه وملأه من قبط مصر على يديه. ولله سبحانه وتعالى مكر وهو خير الماكرين؛ فكانت مشيئته أن هذا الذي يحذر منه فرعون سوف يربيه هو بنفسه يطعمه ويكسوه ويحفظه ويطلق عليه الناس ابن فرعون؛ فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وهو السميع البصير.

أوحى الله تعالى إلى أم موسى مطمئنا إياها على وليدها الصغير موسى؛ فقال سبحانه وتعالى لها: {أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِين} **القصص7.**

وهنا وعد الله أم موسى وعد إلهي بأنها لا تخاف ولا تحزن على ولدها وأن تضعه في تابوت خشبي وتلقيه في النيل وأنه سيحفظه لها وسيعيده إليها تارة أخرى، وأنه سيجعله من المرسلين: {ولا تخافي ولا تحزني إنّا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين}**القصص7.** فلما وضعته أرضعته، ثم دعت نجارا فجعل له تابوت وجعل مفتاح التابوت من داخل وجعلته فيه وألقته في اليم: {إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى. أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّه} **طه38-39.** نعم سيلتقطه آل فرعون وليكون فرعون نفسه أكثر الناس حفاظا عليه وعلى حياته هو نفس الإنسان الذي اجتهد سنوات عدة من أجل القضاء عليه.

==

1: ابن كثير- 32/2

2: ابن الأثير- 130/1

3: ابن الأثير- 133/1

ولقد ألقى الله سبحانه وتعالى على موسى محبة منه؛ فما يراه الرائي إلا ويحبه ويدخل قلبه هكذا دون سبب: {وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي}**طه39**. ففعلت أم موسى ما أوحى إليها فأرضعت صبيها الجميل ووضعته في تابوت خشبي صغير على قدر حجمه وألقته في النيل الذي أخذه في تياره السريع إلى المكان الذي أمر الله به.

وفي نفس الوقت أمرت أم موسى أخته الكبرى أن تسير بجوار شاطيء النيل تتبعه من بعيد دون أن يشعر بها أحد فتنظر إلى أين سيحمل الماء ذلك التابوت الصغير: {وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}**القصص11**. وأخت موسى إسمها مريم.[1]

فحملت يد القضاء و القدر ذلك التابوت الصغير إلى قصر فرعون؛ نعم قصر فرعون ولسان حال القدر يقول: هاهو يا فرعون الطفل الذي ظللت عاكفا عمرك كله تبحث عنه لتقتله، هاهو في قصرك وبين يديك فاقتله أو اذبحه إن استطعت. فسبحان الله تعالى.

كانت جواري القصر يلهون في الحدائق والبساتين حين بصروا ذلك التابوت الصغير طافيا على وجه الماء وسمعوا صوت طفلا صغيرا يبكي بداخله فالتقطوه ولكنهم لم يجرئوا على فتح التابوت إلا أمام سيدة القصر السيدة المباركة آسيا امرأة فرعون التي أمرتهم على الفور بفتح التابوت ففتحوه وطار قلبها فرحا وسعادة عندما وقع بصرها على ذلك الطفل الرائع الجمال والذي لا تملك إلا أن تحبه وتعشقه بمجرد أن تقع عيناك عليه، فأخذته إلى زوجها الفرعون الأحمق المتكبر طالبة منه أن يتركه لعله ينفعهم أو يتخذوه ولدا دون أن يشعر الناس فلم يكن لدى فرعون بعد أولادا ذكور: {وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} **القصص9**. ولقد صدق حدسك أيتها المرأة المباركة فكان قرة عين لك وقد نفعك الله به؛ ولكن لم يكن قرة عين لزوجك الفرعون؛ لم يكن له قرة عين أبدا. هذه هي آسية بنت مزاحم التي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها: كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون.[2]

فرددناه إلى أمه: حزنت أم موسى على ولدها الجميل الرائع حزنا شديدًا حتى أصبح فؤادها لا شيء فيه من متع الدنيا أبدا يلهيها عن ولدها وقرة عينها وبالفعل كادت أن تذهب إلى فرعون وتقول له هذا ولدي أريده حيث القتل والدمار لبني إسرائيل أجمعون؛ إلا أن الله تعالى ربط على

==

1: ابن الأثير- 132/1

2: خرجه السيوطي عن أبي موسى وصححه الألباني

قلبها فصبرت: {وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِين} **القصص10.** فأراد الله أن يوفي بوعده لها بأن يرده إليها فحرم على موسى كل مرضعة فلم يقبل أن يلتقم ثدي إحداهن أبدا: {وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْل}**القصص12.** فأمرت امرأة فرعون الجواري أن يأخذن الطفل معهن وأن ينزلن إلى المدينة ليبحثوا له عن مرضعة؛ فلم يلتقم ثدي أيا منهن أبدا. وكانت أخته تراقبه من بعيد كما أمرتها أمها فذهبت إليهن وقالت هل أدلكم على مرضعة له؟ فقالوا لها وأين هي هذه المرأة؟ قالت تعالوا معي، وذهبت بهن إلى أمها حتى يتحقق وعد الله: {فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ. فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُون}**القصص12-13.**

عاد موسى إلى حضن أمه وتربى بين يديها حتى شب وصار رجلا وصار ذا هيبة بين بني إسرائيل أجمعهم: {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِين} **القصص14.** فهو موسى ابن فرعون ملك مصر فيا لسخرية الأقدار.

موسى يقتل القبطي:

في يوم وبينما وموسى الشاب القوي الحسيب النسيب يسير في البلدة بين الناس في وقت القيلولة حيث الناس نائمون غافلون شاهد اثنين من الرجال يتشاجرون أحدهما إسرائيلي وآخر قبطي (مصري) فاستنصره الإسرائيلي على القبطي فحاول موسى فض النزاع فوكز القبطي وكزة واحدة فسقط من فوره على الأرض ميتا: {فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ. قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِين} **القصص15-17.** فأصبح موسى خائفاً من أن يعلم فرعون بما حدث فيشيع عن موسى أنه ينصر بني إسرائيل وهم العبيد المهانون على أهل البلد من القبط؛ مما قد يثير غضب فرعون على موسى: {فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ. فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِين} **القصص18-19.** فترك القبطي فذهب وانتشر الخبر في كل المدينة؛ موسى يقتل مصريا لينصر إسرائيليا؛ وبالفعل علم فرعون بمقتل القطبي على يد موسى فأرسل في طلبه ليحقق في الأمر. إلا إن أحدهم سبقهم إلى موسى وحذره منهم ومن فرعون: {وَجَاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ

النَّاصِحِينَ. فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}**القصص20-21. قيل:** كان حزقيل مؤمن آل فرعون كان على بقية من دين إبراهيم عليه السلام وكان أول من آمن بموسى.[1]

خروج موسى من مصر:

خرج موسى من مصر خائفاً يترقب؛ هاربا من فرعون وقومه الظالمين إلى الشرق سائرا الأيام والليالي على قديمه؛ ولا يأكل سوى ورق الشجر حتى التصقت بطنه بظهره من الجوع والفقر. حتى وصل إلى بلدة مدين؛ فلما بلغ مدين حتى سقط ليرتاح: {وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاء مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاء السَّبِيلِ}**القصص22.** فشاهد من بعيد فتاتين يريدان ماء البئر ولضعفهما كانا ينتظران أن يأتي القوم فيرفعان تلك الصخرة الكبيرة التي تغطي البئر فما كانا يقدران علي ذلك أبدا. فينتظران حتى ينتهي القوم من أخذ مائهم وما تبقى في قعر البئر أخذوا منه. **قيل:** هما ابنتا شعيب النبي؛ وقيل: ابنتا يثرون وهو ابن أخي شعيب.[2] فتطوع الشاب القوي موسى بمساعدتهما فرفع لهما تلك الصخرة العظيمة التي لا يقوى على حملها عشرة من الرجال الأقوياء؛ **يقول الله تعالى في قصتهما:** {وَلَمَّا وَرَدَ مَاء مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاء وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ. فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ. فَجَاءتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاء قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ. قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِين} **القصص23-26.** طلبت الفتاة من أبيها الشيخ الصالح أن يستأجر موسى ليرعى الأغنام لهم؛ فهو قوي وأمين؛ فلما وافق عادت إحداهن إلى موسى تستدعيه؛ فقالت: إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا. فقام معها فمشت بين يديه، فضربت الريح ثوبها، فتكشف بعض من جسدها؛ فقال لها: امشي خلفي؛ ودليني على الطريق؛ فإنا أهل بيت لا ننظر في أعقاب النساء. ولما أتى موسى الرجل الشيخ الصالح وأخبره خبره؛ عرض الشيخ عليه أن يزوجه احدى بنتيه هاتين على شرط أن يعمل لديه أجيرا لثماني سنين وقال له لو أتممتهم عشرا فهذا فضلا منك وكرم: {قال إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ

==

1: ابن الأثير- 134/1

2: ابن الأثير- 135/1

إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ. قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيل}**القصص27-28.** وقد كان الشيخ الصالح قد وهب لموسى كل شاة ولدت على غير لون والديها فكان له في السنوات العشر التي قضاها معهم شياه كثيرة.

موسى يعود إلى مصر:

طلب موسى من الشيخ الكبير أن يعود إلى مصر هو وأهله بعد أن وفاه المدة عشر سنين؛ وهي أكمل المدتين؛ فأذن له؛ فعاد إلى مصر في ليلة باردة مظلمة من جانب جبل طور سيناء؛ فتاهوا في الطريق فبصر موسى من بعيد نارا، فقال موسى لأهله: تمهلوا وانتظروا إني أبصرت نارًا لعلي آتيكم منها بنبأ؛ أو آتيكم بشعلة من النار لعلكم تستدفئون بها.

فلما أتى موسى النار رأى نورا ممتدا من السماء إلى شجرة عظيمة من العوسج، **وقيل:** من العناب. فتحير موسى وخاف حين رأى نارا عظيمة بغير دخان وهي تلتهب في شجرة خضراء لا تزداد النار إلا عظما ولا تزداد الشجرة إلا خضرة.(1) فلما دنا منها استأخرت عنه ففزع ورجع فناداه الله تعالى من جانب الوادي الأيمن في البقعة المباركة من جانب الشجرة: أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين؛ وأن ألق عصاك؛ فألقاها موسى فصارت حية تسعى؛ فلما رآها موسى تضطرب كأنها جانٌّ ولَّى هاربًا منها؛ ولم يلتفت من الخوف؛ فناداه ربه: يا موسى أقبل إليَّ ولا تَخَفْ إنك من الآمنين من كل مكروه. وأن إخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوي. ثم أمره الله تعالى أن أدخل يدك في فتحة قميصك وأخرجها تخرج بيضاء كالثلج مِن غير مرض ولا برص؛ واضمم إليك يدك لتأمن من الخوف؛ فهاتان اللتان أريتُكَهما يا موسى: مِن تحوُّل العصا حية؛ وجَعْلِ يدك بيضاء تلمع من غير مرض ولا برص آيتان من ربك إلى فرعون وأشراف قومه.

قال موسى: ربِّ إني قتلت من قوم فرعون نفسًا فأخاف أن يقتلوني؛ وأخي هارون هو أفصح مني نطقًا؛ فأرسله معي عونًا يصدقني؛ ويبين لهم عني ما أخاطبهم به؛ إني أخاف أن يكذبوني في قولي لهم: إني أُرسلت إليهم. قال الله لموسى: سنقوِّيك بأخيك؛ ونجعل لكما حجة على فرعون وقومه فلا يصلون إليكما بسوء. أنتما -يا موسى وهارون- ومَن آمن بكما المنتصرون على فرعون وقومه: بسبب آياتنا وما دلَّتْ عليه من الحق.

==

1: ابن الأثير- 136/1

موسى يذهب إلى فرعون:

أمر الله تعالى نبيه موسى وأخوه النبي هارون عليهما السلام الذهاب إلى فرعون ليدعواه إلى عبادة الله الواحد القهار وأن يطلبا منه أن يحرر بني إسرائيل من عبوديته؛ قال تعالى: {فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ. أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيل}**الشعراء16-17.**

سار موسى إلى مصر، وأوحى الله إلى هارون يعلمه بقفول موسى ويأمره بتلقيه، فخرج من مصر فالتقى به؛ قال موسى يا هارون: إن الله تعالى قد أرسلنا إلى فرعون، فانطلق معي إليه. قال: سمعا وطاعة.[1]

وبالفعل ذهبا إلى فرعون: {وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِين} **الأعراف104.** وبالطبع كانت هذه صدمة كبيرة لهذا الفرعون المتكبر أن يأتي إليه موسى الذي رباه في بيته كولد له وبعد أن قتل نفس بالخطأ وهرب وعاد بعد سنين ليدعوه إلى عبادة الله وأن يرسل معه بني إسرائيل: {قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ. وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِين}**الشعراء18-19.** فقال له موسى بمنتهى الشجاعة نعم فعلت وقتلته خطأ واستغفرت ربي على ما فعلت وهربت منكم خوفاً من ظلمكم وبطشكم وتاب على ربي واجتباني نبيا وأرسلني إلى بني إسرائيل؛ ونفى موسى أن يكون ما فعله معه فرعون من تربيته له نعمه، فلولا استعباده لبني إسرائيل ما كانت أمه لتضعه في التابوت وتلقيه في اليم ليلتقطه فرعون ويربيه؛ فقال له مستنكرا: {تِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيل}**الشعراء22.**

فقاطعه فرعون بتكبره المعهود وسأله في غطرسة متناهية وكأنه لم يسمع استنكار موسى عليه بمنه عليه بتربيته: {قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ} **الشعراء23.** سأله اللعين وما صفة هذا الرب الذي تزعم أنه رب العالمين والذي تدعونا إلى عبادته يا موسى؟ فقال له موسى عليه السلام واصفا رب العالمين الملك الحق: {قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إن كُنتُم مُّوقِنِينَ} **الشعراء 24.** فسخر منه فرعون والتفت إلى ملأه حاشية السوء وبطانة الشر وقال: {قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُون}**الشعراء25.** فاستدرك موسى قائلاً: {قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِين}**الشعراء26.** فضحك منه فرعون تغيظاً وسخر منه وحاول تحريض القوم عليه وتسفيهه أمامهم فهو لم يسمع أبدا عن هذا الإله الحق: {قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُون}**الشعراء27.** فاستمر موسى

===

1: ابن الأثير- 138/1

في مهمته في الدعوة إلى الله غير مباليا بسخرية فرعون منه ونعته إياه بالجنون فقال للقوم: {قال رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُون}**الشعراء28.**

وهنا شعر فرعون بالغضب الشديد فمقولة موسى كلها عقل وتخلو من أي جنون، فقال مدافعا عن ألوهيته المزعومة المكذوبة: {قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِين}**الشعراء29.**

فأخبره موسى أنه لايمكن أن يدعي النبوة ويكذب على الله: {حَقِيقٌ عَلَى أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَق} **الأعراف105.** ثم قاله له موسى محاولا هدايته إلى مولاه الملك الحق حسنا ولو جئتك يا فرعون بآية ودليل على صدق كلامي هل ترسل معي بني إسرائيل: {قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيل} **الأعراف105.** فالبرهان هو دليل الصدق كما قال تعالى: {قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِين}**النمل64.** فتحداه فرعون أن يفعل وكأنه لو رأى الآية لآمن من فوره: {قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِين} **الأعراف106.**

فأتى موسى بأفعال لايمكن أن تصدر عن بشر ولا من الممكن عقلا ومنطقا أن يأتي بها مخلوق فهي آيات بينات على إنها كلها من عند الله: {فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِين}**الأعراف107.**

وهنا تحولت العصا بأمر الله تعالى إلى حية عظيمة من لحم ودم ، نعم تحولت العصى الخشبية بأمر الله تعالى إلى حية من لحم ودم ومن يقدر علي ذلك سوى إله خالق قادر: {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُون}**النحل40. قيل:** أن هذا الثعبان توجه نحو فرعون ليأخذه؛ فخافه فرعون، ووثب فزعا فأحدث في ثيابه.. وناشده فرعون بربه تعالى أن يرد الثعبان؛ فأخذه موسى فعاد عصا.[1]

ثم أراه موسى آية أخرى: {وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء لِلنَّاظِرِين}**الشعراء33.**

أدخل موسى يده في ردائه ثم أخرجها فإذ بها يداً بيضاء ناصعة البياض مبهرة. وعندما شعر فرعون بالهزيمة أمام موسى ومعجزاته حاول التملص من الموقف بغروره وتكبره المعهود، ولأن ما جاء به موسى خارقا لا يقدر عليه مخلوق رماه بالسحر، والساحر هو من يخدع الناس فيصور لهم الأمور على غير حقيقتها وطالما هو يكذب بموسى فلم يبقى أمامه إلا رميه بالسحر، فقال له: {قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى}**طه57.** وقال لقومه: {قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ. يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُون} **الشعراء34-35.** فقال له الملأ وهم قوم سوء: {قَالُوا أَرْجِهِ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ. يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيم}

==

1: ابن الأثير- 139/1

فقال لهم موسى متأسفاً على ضيق عقولهم واغترارهم بأقوال فرعون الباطلة الزائفة: {قَالَ مُوسَى أَتقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ} **يونس77.** فالتفت فرعون إلى موسى وقال له متحديا: {قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاء فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ} **يونس78.** وقال: {فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَاناً سُوًى}**طه58.** وقبل موسى التحدي لإظهار الحق وإبطال الباطل: {قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى} **طه59.** وتم تحديد الموعد في يوم العيد حيث تكون الفرصة سانحة لموسى لأن يظهر دليل نبوته أمام أكبر عدد من الناس: {فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ}**طه60.** وقال فرعون: {ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ}**يونس79. قيل:** كانوا سبعين ساحرا، وقيل: اثنين وسبعين، وقيل: خمسة عشر ألفا، وقيل: ثلاثين ألفا.(1)

موسى يتحدى سحرة فرعون:

جمعوا لموسى أكبر وأعظم سحرة زمانهم، الذين فرحوا بهذه المبارزة التي كانت من وجهة نظرهم بسيطة جدا لأنهم أعظم أهل السحر في ذلك الزمان؛ وطلبوا من فرعون أن يجزل لهم في العطاء لو انتصروا على موسى فوعدهم فرعون بوافر العطاء وأنهم سيصيرون من بطانته المقربة: {وَجَاء السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالْواْ إِنَّ لَنَا لأَجْراً إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ. قَالَ نَعَمْ وَإَنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ} **الأعراف113-114.** ثم استدار للقوم ودعاهم لحضور المبارزة الخارقة بين موسى والسحرة وأن يجمعوا الناس لميقات اليوم المعلوم: {وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ}**الشعراء39.** وقال لهم ساخرا: {لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ}**الشعراء40.**

ولنا أن نتخيل تلك الساحة العظيمة التي شيدت خصيصاً لهذه المبارزة الخارقة بين نبي الله موسى وأعظم وأفجر سحرة ذلك الزمان، والناس مجموعون من الضحى لمشاهدة هذا الأمر العظيم الذي كان حديث البلاد كلها وقتئذ وأتى موسى وهارون أنبياء الله وكلهم ثقة في نصر الله تعالى لهم وإعلاء كلمته وأتى فرعون وسحرته وكلهم غرور وتكبر وطغيانا وثقة في شيطانهم.

وقبل أي شيء صاح موسى في الناس نذيرا من قولهم بأن فرعون إله معبود من دون الله وحذرهم من عذاب الله على كل من افترى على الله كذبا: {قَالَ لَهُم مُّوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى} **طه61.** فذعر الناس من تحذير موسى وتفاوضوا بينهم

==

1: ابن الأثير- 140/1

سرا ولكنهم أجمعوا على أن موسى وأخيه هارون ساحران يريدان أن يخرجوهم من أرضهم بسحرهما ويبطلا عقيدتهم المثلى الطيبة -حسب زعمهم- ونادى فرعون أن يأتي بكل كيد ليهزمهما: {فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى. قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى. فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفّاً وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى}**طه62-64.** وهنا انتهى الأمر وكانت المنافسة والمبارزة ضرورة لابد منها وكان السحرة قد أخبروا من قبل أن موسى أتى بعصى فحولها إلى حية تسعى فقالوا إن هذا لأبسط من بسيط ونحن أيضاً نستطيع أن نحول الحبال والعصي إلى حيات تسعى. فلما جمع الناس سأل السحرة موسى أتبدأ أنت أم نكون نحن البادءون: {قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى}**طه65.** فلما سألوه قال لهم موسى: {أَلْقُواْ مَا أَنتُم مُّلْقُون}**يونس80.**

فما كان من السحرة إلا أن أتوا بسحر عظيم فألقوا بعصيهم وحبالهم أمام الناس: {فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُون} **الشعراء44.** فلما فعلوا: {سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءوا بِسِحْرٍ عَظِيم} **الأعراف116.** فظن كل من يشاهد أنه بالفعل العصي والحبال قد تحولت إلى حيات تسعى أمام ناظرهم بسبب سحر أعين الناس. وإنظر إلى شهادة رب العالمين لسحر هؤلاء السحرة؛ وهو يصف سحرهم بأنه سحر عظيم.

وهكذا رآها موسى رأى العصي والحبال كأنها حيات تسعى: {فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى}**طه66.**

فخاف موسى، خاف أن يظن الناس أن ما جاء به سحرا فكما فعل فعل السحرة، هو ألقى عصاه فتحولت إلى حية، وهم ألقوا عصي فتحولت إلى حيات تسعى: {فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى} **طه67.** وبالطبع علم الله مافي نفس موسى فأوحى إليه مثبتا إياه ومخبرا أن فعل السحرة هذا خيال وتخييل لا حقيقة فيه، وأكد له أن صنع الساحر وكيده لا يفلح أبداً حيث أتى: {قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَى. وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى}**طه68-69.**

فاطمئن موسى بكلام ربه فقال لهم: {مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللّهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ. وَيُحِقُّ اللّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُون}**يونس 81-82.** وألقى موسى عصاه فإذا بها تتحول إلى حية عظيمة فأتت على ما أتوا من سحر وتخييل فأكلته وابتلعته فصار وكأنه لم يكن وبطل ما كان يعملون: {أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ. فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ. فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَانقَلَبُواْ صَاغِرِين} **الأعراف117-119.** ولأن السحرة هم

أكثر الناس دراية بألعاب السحر وحيله كانوا هم أول من شهد على نبوة سيدنا موسى وتصديقا له ولمعجزته التي يعجز هم وجميع الخلق على الإتيان بمثلها؛ فكانوا هم أول من آمن به من آل فرعون وذلك لأنهم سحروا أعين الناس ولم يسحروا أعين أنفسهم؛ وحين ما كان الناس يشاهدون حبالهم وعصيهم على أنها حيات تسعى كانوا هم بالأخص يعلمون ويرون عصيهم وحبالهم هي كما هي لم يجري عليها أدني تغيير. ولكن عندما أتى موسى بمعجزته بأمر الله علموا أن هذا ليس بسحر أبدا فالسحر لا يغير طبيعة الأشياء ولا يقدر على تحويل الخشب والحبال إلى لحم ودم وروح بل يخيل للناظر بهذا فقط، فما كان منهم إلا أن خروا ساجدين لرب العالمين معلنين إيمانهم: {فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ. قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ. رَبِّ مُوسَى وَهَارُون} **الشعراء46-49.** وهنا وبعد أن انهزم فرعون وجنده من السحرة وبعد أن بان زيفهم وكذبهم أمام الناس وسقط السحرة ساجدين لرب موسى وهارون أعدائه إشتاط غضبا وبمنتهى الحماقة والكبر صاح في السحرة قائلا: {قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَن آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُون} **الأعراف123.** أتهمهم بتدبير مؤامرة عليه ورغم أنه هو من أتى بالسحرة وجمعهم لمواجهة موسى قفال فرعون متحامقا: {إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ}**طه71.** وهدد السحرة أن يعودوا إلى عبادته وطاعته وإلا سيريهم من أشد عذابا هو أم رب موسى وهارون؛ فقال لهم مهددا: {فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى}**طه71.**

وهنا يتوقف موسى عن الكلام ليترك المجال للسحرة التائبون ليضربوا مثالا رائعاً في التوبة والإنابة إلى الله وفي قوة الإيمان الحق بالله تعالى؛ فقالوا بقوة وثبات وروعة. افعل بنا يا فرعون ما تريد من أصناف العذاب لا ضير علينا: {قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُون}**الشعراء50.** قالوا لن نؤثر طاعتك يا فرعون على طاعة رب العالمين بعد أن أرانا الله أية من آياته العظمى، فأنت بملكك بقضائك علينا في الدنيا والدنيا زائلة والله سبحانه هو خير وأبقى: {قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا. إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى}**طه72-73.**

وبالفعل كان سحرة موسى أول من آمن من آل فرعون بموسى وكان رجائهم في هذا أن يغفر الله لهم بأنهم أول من آمن به: {إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِين} **الشعراء51.**

ودعى السحرة ربهم إلههم ومولاهم بهذا الدعاء الرائع العظيم الخالد: {قَالُواْ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ. وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِين}**الأعراف 125-**

126. قال ابن الأثير عن هؤلاء السحرة: فكانوا أول النهار كفارا وآخر النهار شهداء.[1] فهنيئا لهم حسن الخاتمة وهنيئا لهم رضاء الله تعالى عنهم فنعم الرجال هم رضي الله عنهم وأرضاهم وتغمدهم بواسع رحمته.

الله سبحانه وتعالى يعاقب مصر وأهلها:

استكبر فرعون المغرور الأحمق وتبعه قومه وملأه دون وعي ولا عقل فكما كفر كفروا وكانوا هم بطانة السوء فلما لم يؤمنوا بآيات الله التي أظهرها على يد موسى أخذهم الله بالبلاء والعقاب بسبعة آيات بينات بعد آيتين اليد والعصا لعلهم يرجعون إلى ربهم ويؤمنون: {لَمَّا جَاءهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ. وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُون} **الزخرف47-48.** فأرسل عليهم الطوفان فأغرق الأرض وهلك الزرع فلم يجدوا ما يأكلوه فذهبوا إلى موسى وطلبوا منه أن يدعو الله لهم أن يرفع عنهم الطوفان ولسوف يكونوا من المؤمنين: {وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُون} **الزخرف49.** والساحر في لغتهم آنذاك لم تكن سبا أو تهمة كما نستعمل نحن اللفظ الآن لا بل كان معنى الساحر عندهم العالم الكامل العلم لأن السحر كان عند قدماء المصريين من أعظم العلوم. فدعا لهم موسى ربه فكشف عنهم الطوفان؛ فعادوا إلى كفرهم وسخطهم: {فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُون} **الزخرف50.** فعاد الله عليهم بالعذاب فأرسل عليهم الجراد تترا فأكل الزرع والثمار فعادوا إلى موسى فدعا لهم موسى وكشف عنهم العذاب؛ فعادوا مرة أخرى إلى كفرهم قائلين هذا العذاب من سبب موسى وبني إسرائيل هم من جرونا إلى العذاب وتطيروا منهم: {فَإِذَا جَاءتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُون} **الأعراف131.** فعاد الله عليهم بالعذاب فأمر الله موسى أن يذهب إلى تلة صغيرة فيضربها بعصاه فضربها فتحولت إلى قمل وهو الدبا؛ فأنتشر في البلاد فرجعوا إلى موسى كي يدعو الله لهم ويكشف الله عنهم العذاب فيفعل فيعودوا مرة أخرى.

فأرسل عليهم الضفادع، وكانت تسقط في قدورهم وأطعمتهم، وملأت البيوت عليهم، فسألوا موسى أن يكشفه عنهم ليؤمنوا به ففعل فلم يؤمنوا.

==

1: ابن الأثير- 141/1

فأرسل الله عليهم الدم؛ فصارت مياة المصريين دما؛ فسألوا موسى أن يكشفه عنهم ليؤمنوا به ففعل فلم يؤمنوا؛ **أو كما قال الله تعالى:** {أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاَتٍ فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِين}**الأعراف133.** فأجمع ملأ فرعون كلهم على هذا القول: {وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِين}**الأعراف132.**

واسمعوا إلى خطبة فرعون لقومه بعد كل هذه الآيات العظيمة: {وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ. أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِين}**الزخرف51-52.** مهين معناها ضعيف مهان ولا يكاد يبين معناها أن لديه مشاكل في النطق؛ **قال المفسرون:** أن فرعون لما شك في أمر موسى وهو طفل صغير أراد أن يختبره فوضع بين يديه جمرة ملتهبة وثمرة حمراء أغلب الظن أن تكون لتمرة أو بلحة حمراء وقيل: ياقوتة حمراء. وأخذ ينظر إلى أيهما سينجذب الطفل ويمسك بيديه فهو إن كان نبيا محفوظا لأمسك بالثمرة ولو كان طفلا عاديا لأمسك بالجمرة فما كان من موسى إلا أن مد يديه إلى الثمرة فحول فرعون يده إلى الجمرة فحملها فوضعها في فيه فاحترق لسانه فأصابته لثغة في لسانه طوال عمره ولهذا سخر منه الفرعون الأحمق وقال: أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين. أي لا يكاد نفهم منه ما يقول.

وإن كنت أنا شخصيا لا أعرف كيف تحمّل الطفل حمل الجمرة الملتهبة إلى فيه فيلعقها بلسانه فالطبيعي أنه لو لمس الجمرة لإحترقت يده ولابتعد على الفور عنها فكيف به يمسكها ويحملها إلى فيه مما يدعوني إلى الشك في صحة الرواية وغالب الظن أن سيدنا موسى كان في لسانة لثغة عادية مثل التي نعرفها في الناس والله تعالى أعلى وأعلم.

حاول فرعون السخرية من موسى فقال إنك حتى يا نبي الله لا تحمل في يديك أسورة من ذهب فكيف يكون إله أرسلك وأنت فقير هكذا أرأيتم الحمق؟ وأين الملائكة لماذا لا نراها معك؟ {فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاء مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ. فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِين}**الزخرف53-54.** ولما يأس منهم موسى دعا عليهم بهذه الدعوة التي لا ترد وأمن عليها هارون عليهما السلام: {رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيم}**يونس88.** فقال لهما ربهما مستجيبا؛ وقوله الحق: {قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلاَ تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُون}**يونس89.**

وتآمر الملأ على بني إسرائيل فقالوا لفرعون: {أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُون}**الأعراف127.** وبالفعل عاد فرعون يذبح أبناء بني إسرائيل ويستحي نسائهم حتى تضعف شوكتهم ويقل عدد رجالهم فلا يقدرون على حرب فرعون وملئه أبدا؛ وأخذ موسى يصبِّر قومه؛ ويبشرهم بنصر الله؛ ولكن قومه ضجروا من العذاب وحملوا موسى عاقبة ما يحدث لهم: {قال مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللّهِ وَاصْبِرُواْ إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ. قَالُواْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُون}**الأعراف128-129.**

موسى يخرج مع بني إسرائيل من مصر:

مرت سنين لا يعلم عددها إلا الله حتى إن بعض المفسرون قالوا أربعين سنة حتى أمر الله تعالى موسى أن يسير ببني إسرائيل ليلا ناحية الشرق: {أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُون} **الشعراء52.** وعلم فرعون بنية خروج موسى وبني إسرائيل من مصر؛ فجمع جنده كلهم مقررا أن يلحق بهم ناويا قتلهم أجمعين. **قيل أن عدد بني إسرائيل آنذاك كان:** ستمائة ألف وعشرين ألفا؛ تبعهم فرعون وعلي مقدمته هامان.[1]

كان بنو إسرائيل كلهم وقتئذ واقفين أمام شاطئ البحر الأحمر يفكرون كيف سيعبرون إلى الجانب الآخر من البحر؛ ونظروا ورائهم فوجدوا فرعون وهامان وجنودهما يطلبونهم؛ فظنوا أنهم مدركين وطارت القلوب رعبا؛ فطمئنهم موسى: {فَلَمَّا تَرَاءى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ. قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ. فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ. وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ. وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِين}**الشعراء61-65.** ضرب موسى البحر فانحسر الماء عن اليمين وعن الشمال صانعا لهم اثنتى عشر طريقا علي قاع البحر لكل سبط من أسباطهم الإثنتى عشر يمشون فيه؛ فقادهم موسى إلى قلب البحر واتبعه كل بني إسرائيل إلى الجانب الآخر من البحر، ووقف جنود فرعون خائفون من إتباعهم بين طودي البحر المهيب؛ فقادهم فرعون علوا وغرورا إلى البحر حيث يلقى مصيره المحتوم: {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِهَ إِلاَّ

==

1: ابن الأثير- 143/1

الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ. آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ. فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُون}**يونس90-92.**

قيل: ودنا فرعون وأصحابه من البحر، فرأى الماء على هيئته والطرق فيه، فقال لأصحابه: ألا ترون البحر قد فرق مني؛ وانفتح لي حتى أدرك أعدائي؟ فلما وقف فرعون على أفواه الطرق لم تقتحمه خيله؛ فنزل جبريل من السماء على فرس أنثى وديق؛ فشم فرس فرعون ريحها، فاقتحم في أثرها حتى إذا همّ أولها أن يخرج ودخل آخرهم، أمر البحر أن يأخذهم، فالتطم عليهم، فأغرقهم وبنوا إسرائيل ينظرون إليهم، وانفرد جبريل بفرعون يأخذ من حمأة البحر**(الطين الأسود المُنتن؛ والقطعة منه حمأة)** فيجعلها في فيه.[1]

غرق فرعون وجنده أجمعون، غرق المتكبر الأحمق المغرور وهلك على يد ربيبه موسى، وهو في سكرات الموت عرف أن الحق مع موسى وهارون وأن الله رب العالمين حق وأن كل ما جاء به موسى من عند الله حق فصرخ: آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ. فرد الله عليه توبته فلا توبة في سكرات الموت: {وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيما} **النساء18.** فرد عليه ربه سبحانه وتعالى وقال: {آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِين} قال جبريل لرسول الله: يا محمد فلو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر فأدسه في فيه مخافة أن تدركه الرحمة.[2]

وغابت جثة فرعون وكل جنده في البحر فلم يظهر منهم أحد فقال بعض المتشككين من بني إسرائيل أن فرعون لم يمت وأنه لا يموت فأمر الله تعالى البحر أن يرفع عليه جثة فرعون ليشاهده كل الناس وليكون لمن بعده آية: {فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُون}**يونس92.** وفي الحديث قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة فوجد اليهود صياما فقال ما هذا قالوا هذا يوم أنجى الله فيه موسى وأغرق فيه فرعون فصامه موسى شكرا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم نحن أحق بموسى منكم فصامه وأمر بصيامه.[3] وهذا هو يوم عاشوراء.

==

1: ابن الأثير- 144/1

2: خرجه الترمذي في جامعه عن ابن عباس وصححه الألباني- 278/5

3: خرجه ابن ماجه في سننه وصححه الألباني- 552/1

ويقول المؤرخون أن فرعون هذا هو رمسيس الثاني الراقد ببدنه اليوم في المتحف المصري بالقاهرة لمن أراد أن يشاهده فليذهب وليعلم أن وعد حق، وليحصد كل مغرور ثمرة الغرور، ويكفي أن نقول أن هذا الفرعون وجنده الآن في قبورهم يعذبون؛ يقول الحق: {وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ. النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَاب} **غافر45-46.**

موسى يرسل جيشا إلى مصر:

بعث موسى جيشا عظيما يبلغ اثنتا عشرة ألفا إلى مدائن فرعون؛ وهي يومئذ خالية من أهلها؛ قد أهلك الله عظماءهم ورؤساءهم، ولم يبق غير النساء والصبيان والمرضى والمشايخ والعاجزين، فدخلوا البلاد وغنموا الأموال. وحملوا ما أطاقوا وباعوا ما عجزوا عن حمله إلى غيرهم، وكان عليهم الجندين يوشع بن نون، وكالب بن يوفنا.(1)

موسى كليم الله

كان موسى قد وعده الله وهو بمصر أنه إذا خرج مع بني إسرائيل منها وأهلك الله عدوهم أن يأتيهم بكتاب فيه ما يأتون وما يذرون. فلما أهلك الله فرعون وأنجى بني إسرائيل؛ قالوا: يا موسى أئتنا بالكتاب الذي وعدتنا. فسأل موسى ربه ذلك؛ فأمره أن يصوم ثلاثين يوما، ويتطهر، ويطهر ثيابه، ويأتي الجبل -جبل طور موسى- ليكلمه ويعيطه الكتاب؛ فصام ثلاثين يوما أولها ذي القعدة؛ وسار إلى الجبل واستخلف هارون على بني إسرائيل.(2)

وقال موسى لأخيه هارون -حين أراد المضيَّ لمناجاة ربه-: كن خليفتي في قومي حتى أرجع؛ وأحمِلَهم على طاعة الله وعبادته؛ ولا تسلكْ طريق الذين يفسدون في الأرض. فلما قصد موسى الجبل أنكر ريح فمه؛ فتسوك بعود خرنوب، **وقيل:** تسوك بلحاء شجرة، فأوحى الله إليه أما علمت أن خلوف فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك؟ وأمره أن يصوم عشرة أيام أخرى فصامها، وهي عشر ذي الحجة فتم ميقات ربه أربعين ليلة؛ ففي تلك الليالي العشر افتتن بنو إسرائيل؛ لأن الثلاثين انقضت ولم يرجع إليهم موسى.(3)

==

1: ابن الأثير- 145/1

2: ابن الأثير- 145/1

3: نفسه

وطلب موسى من الله تعالى أن يجعله ينظر إليه؛ قال تعالى: {وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ موسَى صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ. قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ. وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِين}**الأعراف143-145.**

وأعطاه الألواح فيها الحلال والحرام والمواعظ، وقد قال الله تعالى لموسى أنه فتن قومه في غيابه وأنهم بالفعل صنعوا تمثال وهم الآن يعبدونه من دون الله تعالى: {قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِي}**طه85.**

موسى والسامري

تحققت المعجزة وتحقق وعد الله تعالى لبني إسرائيل؛ أنجاهم الله وأغرق الظالم الجبار فرعون ووزيره هامان وجنودهما أجمعين: {وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَونَ يَسُومُونَكُمْ سُوَءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيم}**الأعراف141.** فهل أحسن بني إسرائيل شكر ربهم؟

لا لم يحدث فما أن مر بني إسرائيل البحر المشقوق لهم خصيصا وعاينوا بأم أعينهم فناء عدوهم اللدود حتى شاهدوا قوما يعبدون صنما ويسجدون له من دون الله فطلبوا من موسى أن يصنع لهم صنما مثله ليعبدوه من دون الله! يقول تعالى: {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُون} **الأعراف138. قيل:** كانت تلك الآلهة على صور البقر، فكأنهم سألوهم: لم يعبدونها؟ فزعموا لهم أنها تنفعهم وتضرهم، ويسترزقون بها عند الضرورات، فكأن بعض الجهال منهم صدقوهم في ذلك، فقال بنو إسرائيل لنبيهم: اجعل لنا يا موسى صنمًا نعبده ونتخذه إلهًا؛ كما لهؤلاء القوم أصنام يعبدونها؛ قال موسى لهم: إنكم أيها القوم تجهلون عظمة الله؛ ولا تعلمون أن العبادة لا تنبغي إلا لله الواحد القهار. إن هؤلاء المقيمين على هذه الأصنام مُهْلَك ما هم فيه من الشرك؛ ومدمَّر وباطل ما كانوا يعملون من عبادتهم لتلك الأصنام؛ التي لا تدفع عنهم عذاب الله إذا نزل بهم. قال موسى لقومه: أغير الله أطلب لكم معبودًا تعبدونه من دونه؛ والله هو الذي خلقكم؛ وفضَّلكم على عالمي زمانكم بكثرة الأنبياء فيكم؛ وإهلاك عدوكم وما خصَّكم به من الآيات؟

هل انتهى بني إسرائيل؟

كلا لم ينتهوا فما أن رحل موسى عنهم إلي جبل الطور حيث واعده ربه لينزل عليه التوراة حتى حدث ما لا يحمد عقباه. حيث اتخذ قوم موسى من بعد ما فارقهم ماضيًا لمناجاة ربه معبودًا مِن ذهبهم عِجلا جسدًا له خوار. ذهب القوم إلى السامري وطلبوا منه أن يصنع لهم صنما ليتخذوه إلها يعبدونه ويسجدون له وهكذا فعل السامري. فمن هو هذا السامري؟

قيل: كان السامري من أهل باجرمي؛ وقيل: من بني إسرائيل؛ فقال هارون: يا بني إسرائيل إن الغنائم لا تحل لكم والحلي الذي استعرتموه من القبط غنيمة، فاحفروا حفرة وألقوه فيها حتى يرجع موسى فيرى فيها رأيه، ففعلوا ذلك. وجاء السامري بقبضة من التراب الذي أخذه من حافر فرس جبريل فألقاه فيه فصار الحلي عجلا جسدا له خوار. **وقيل:** إن الحلي ألقي في النار فذاب؛ فألقى السامري ذلك التراب؛ فصار الحلي عجلا جسدا له خوار. **وقيل:** كان يخور ويمشي. **وقيل:** ما خار إلا مرة واحدة ولم يعد.[1]

فلما رأي بني إسرائيل هذا العجل؛ قال لهم السامري: هذا إلهكم وإله موسى. فعكفوا عليه يعبدونه. فقال لهم هارون: يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري. فأطاعه بعضهم وعصاه غالبهم. فأقام هارون بمن معه ولم يقاتلهم حتى يعود موسى فينظر ما يري فيهم. وعاد موسى ولا يقدر أحد أن ينظر إليه، وكان يجعل عليه حريرة نحو أربعين يوما ثم يكشفها لما تغشّاه من النور.[2]

عندما وصل موسى إلى قومه ورأى عبادتهم للعجل ألقى الألواح من بين يديه وهو غضبان أسفا؛ وأراد أن يفرغ غضبه على أخيه هارون فأخذ برأس أخيه ولحيته يجره إليه: {وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِيَ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأعْدَاء وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ. قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} **الأعراف 150-151.** قال موسى للسامري: فما شأنك يا سامري؟ وما الذي دعاك إلى ما فعلته؟ قال السامري: رأيت ما لم يروه -وهو جبريل عليه السلام- على فرس؛ وقت خروجهم من البحر وغرق فرعون وجنوده؛ فأخذتُ بكفي ترابا من أثر حافر فرس جبريل؛ -وقد ذكر بعضهم أنه رأى

==

1: ابن الأثير- 145/1

2: نفسه

جبريل على فرسه وكلما وطئت بحوافرها على موضع إخضر وأعشب- فألقيته على الحليِّ الذي صنعت منه العجل؛ فكان عجلا جسدًا له خوار؛ بلاء وفتنة. وكذلك زيَّنت لي نفسي الأمَّارة بالسوء هذا الصنيع. فقال موسى للسامري: فاذهب فإن لك في حياتك أن تعيش منبوذًا تقول لكل أحد: لا أَمَسُّ ولا أُمَسُّ؛ أي لا تلمسني ولا ألمسك فكان كل من يلمس السامري أو يلمسه السامري يتألم ألما شديدا ويصاب بالحمى، وإن لك موعدا يا سامري لعذابك وعقابك؛ لن يُخْلفك الله إياه؛ وسوف تلقاه؛ وانظر إلى معبودك الذي أقمت على عبادته لنُحرقنَّه بالنار؛ ثم لنُذرينَّه في اليمِّ تذرية. إنما إلهكم - أيها الناس - هو الله الذي لا معبود بحق إلا هو؛ وسع علمه كل شيء. **قيل:** أن هذا العجل كان عجلا حقيقيا من لحم ودم وذلك بفعل التراب الذي أخذه من تحت حافر فرس جبريل. **جاء عند ابن كثير:** فأخذ -السامري- ما كان استعاروه من الحُلي فصاغ منه عجلا، وألقى فيه قبضة من التراب، كان أخذها من أثر فرس جبريل، حين رآه يوم أغرق الله فرعون على يديه، فلما ألقاها فيه، خار كما يخور العجل الحقيقي، ويقال: إنه استحال عجلا جسدا. أي لحما ودما، حيا يخور. قاله قتادة وغيره.[1]

موسى وقـارون

من فينا يحلم بالمال الكثير؟ أعتقد كثيرون؛ ولم لا أو ليس هو من زينة الحياة الدنيا؟ يقول الله سبحانه وتعالى: {الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}**الكهف46.** وقدّم المال على البنون مما يدل علي حب بني آدم للمال أكثر من البنين؛ وأن المال مقدم عنده على ما سواه من متاع الحياة الدنيا وهذه شهادة من الله رب العالمين: {وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً}**الفجر20.** ولكن المال والولد فتنة لك فلا تنسى: {إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَة}**التغابن15.** كذلك المال نعمة من الله سبحانه وتعالى فهو سبحانه من يرزقنا بهذا المال. وتلك النعمة يجب أن نشكر الله عليها، يجب أن نرد الإحسان إلى صاحب الإحسان فلا ننسى الله الذي رزقنا، وهاهو قارون خير دليل على ذلك؛ فقارون كان من بني إسرائيل؛ من قوم موسى: {إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى}**القصص76. قال ابن عباس:** كان قارون ابن عم موسى.. هو قارون بن يصهر بن قاهث، وموسى بن عمران بن قاهث.[2] بل وأكد

==

1: ابن كثير- 147/1

2: ابن كثير- 201/2-202

الطبري أن هذا هو قول أهل العلم من سلف أمتنا ومن أهل الكتاب.[1] **قال قتادة:** وكان يسمى المنوّر؛ لحسن صوته بالتوراة، ولكن عدو الله نافق؛ كما نافق السامري.[2]

أتى الله قارون من المال الكثير والكثير حتى أن الله تعالى أعطانا فكرة عما كان لديه من المال الغزير؛ فقال لنا بلفظه المعجز سبحانه وتعالى: {وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ}**القصص76.** وتنوء: تثقل. فأشار سبحانه في هذه الآية إلى كثرة ما أعطاه الله من المال والكنوز بأسلوب معجز فقال أن مفاتيح خزائنه لا يقدر على حملها العصبة أي الجماعة أولي القوة من الرجال؛ فما بالكم بما ستفتح عليه الخزائن من كنوز المال؟ **قيل:** كانت مفاتيح خزائنه تحمل على أربعين بغلا.[3] اتركوا لخيالكم العنان؛ كنوز كثيرة لا تعد ولا تحصى.

ولكن لم يذكر الله تعالى لنا من أين تحصل قارون على هذا المال الكثير! **فقيل:** أوتي من علوم السيمياء والكيمياء فعرف السر الذي يحول به الرماد وكافة المعادن إلى ذهب، ورفض الكثيرون هذا مثل **ابن تيمية في فتاويه قال**: فإن قارون كان يعمل الكيمياء، قلت: وهذا أيضًا باطل؛ فإنه لم يقله عالم معروف، وإنما يذكره مثل الثعلبي في تفسيره عمن لا يسمى. وفي تفسير الثعلبي الغَثّ والسمين، فإنه حاطب ليل، ولو كان مال قارون من الكيمياء لم يكن له بذلك اختصاص؛ فإن الذين عملوا الكيمياء خلق كثير لا يحصون. ورجح شيخ الإسلام أن أموال قارون وكنوزه كانت من أمواله التي اكتنزها أو من كنوز استخرجها من باطن الأرض فقال: والله . سبحانه قال: {وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ}**القصص76**، فأخبر أنه آتاه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة، والكنوز إما أن يكون هو كنزها، كما قال: {وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ}**التوبة34.** وإما أن يكون اطلع على كنائز مدفونة وهو الركاز، وهذا لا ريب أنه موجود.[4] **وقال ابن كثير:** وأما من زعم أن المراد من ذلك، أنه كان يعرف صنعة الكيمياء، أو أنه كان يحفظ الاسم الأعظم؛ فاستعمله في جمع الأموال، فليس بصحيح؛ لأن الكيمياء تخييل وصبغة لا تُحيل الحقائق، ولا تشابه صنعة الخالق، والإسم الأعظم لا يصعدُ الدعاء به من كافر به، وقارون كان كافرا في الباطن، منافقا في الظاهر.[5] على العموم كان لدى قارون من الكنوز

==

1: الطبري- 148/1

2: ابن كثير- 202/2

3: الطبري- 149/1

4: انظر مجموع فتاوى ابن تيمية

5: ابن كثير- 203/2-204

الكثيرة فهل شكر ربه علي هذه النعمة أم كفر؟ كفر فتحقق فيه قوله تعالى: ولئن كفرتم إن عذابي لشديد. هل قال قارون الحمد لله رب العالمين ورد الفضل إلى صاحبه؟ لا بل كفر بنعمة الله عليه ونسب الفضل بهتانا وزورا إلى نفسه؛ فقال: {قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي} **القصص78.** وظن الخبيث أن طالما لديه هذا الخير الكثير من الله فإن الله راضيا عنه ولهذا أعطاه، فقال كصاحب الجنة المغرور: {لَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَبا}**الكهف36.**

فمن الخطأ أن يقيس الإنسان رضا الله عليه بمقدار النعم التي يرى أن الله تعالى قد أنعم بها عليه، فخير الخلق كان فقيرا صلى الله عليه وسلم؛ وكذلك حال معظم الأنبياء والصالحين، وشر الخلق كان أغناهم مثل قارون أو ملكا مثل فرعون، ومن ابتلي مثل بلاء أيوب نبي الله عليه السلام؟. **يقول الحق سبحانه وتعالى:** {قَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ. قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ. وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاء الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُون}**سبأ35-37.** كفر قارون بنعمة الله عليه ونسبها إلى نفسه وقال إنما أوتيته على علم عندي وبغى على قومه فظهر عليهم بزينته وتعالى عليهم؛ **قال تعالى:** فخرج على قومه في زينته. **قيل:** خرج على قومه في زينته راكبا برذونا أبيض[1] مسرجا بسرج الأرجوان، قد لبس ثيابا معصفرة، قد حمل معه من الجواري بمثل هيئته وزينته على مثل برذونه ثلثمائة جارية وأربعة آلاف من أصحابه.[2] حتى تمنى من ليس له علم أن يؤتى ما أوتي قارون وقالوا عليه ذي حظ عظيم: {قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيم}**القصص79.**

تماما مثل الذي يرى سيارة أحدهم الفارهة فيتمنى مثلها، مثل الذي يرى بيت أحدهم الفخم ويتمنى مثله، عموما مثل الذي يرى خيرا في يد أخيه ويتمنى أن يكون له مثله ظانا أن أخاه بهذه النعمة ذا حظ عظيم مع إن صاحب الحظ العظيم ليس من حاز نعمة من نعيم الدنيا بل صاحب الحظ العظيم بالفعل هو من حاز الجنة وثواب الآخرة بشهادة رب العالمين: {وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيم}**فصلت35.** ولكن لا يعلم هذا إلا من أوتي العلم من الله ولهذا استنكر أهل العلم من بعض الناس تمني ما عند قارون من متاع الدنيا؛ فقالوا

==================================

1: البرذون: كل ما هو غير عربي من الخيل والبغال؛ وجمعها براذين

2: الطبري- 149/1

لقومهم: {وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ}**القصص80**. وأما الصالحون من قومه فقد نصحوه؛ فقالوا له: يا قارون لا تفرح هكذا وتختال بنفسك إن الله لا يحب الفخورين الفرحين بتعالى، واقصد بما أتاك الله من خير في الدنيا وجه الله في الآخرة وتمتع به في الدنيا بالقسط والعدل، وأحسن إلى عباد الله كما أحسن الله إليك، ولا تستغل نعمة الله عليك لتفسد الدنيا إن الله لا يحب المفسدين: {إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}**القصص76-77**. فقال لهم إنما أوتيته على علم عندي؛ فذكره الله تعالى بالأمم من قبله؛ الأمم لا فرد واحد؛ وكيف أنهم كانوا أكثر منه قوة ومالا، وكيف أنهم لما بغوا في الأرض أهلكهم الله تعالى بذنبهم؛ فإن كنت تظن أن الله يؤثرك فأعطاك المال فإن الله تعالى أعطاهم أكثر منك ولكن أهلكم ولم يغني عنهم مالهم من الله شيئا: {قالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ}**القصص78**.

فهل رجع إلى مولاه وتاب وأناب؟ لا على العكس تماما بغى وطغى، وما زاده التذكير إلا نفورا؛ فأراد الله أن يجعل قارون عبرة لمن لا يعتبر فما بالك بالذين يعتبرون؟ فخسف به وبكل ماله الأرض والناس ينظرون: {فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ المُنتَصِرِينَ}**القصص81**. ابتلعته الأرض بأمر الله هو وماله كله أمام ناظري الناس كلهم فهل نصره أحد؟ هل أغاثه أحد؟ بالطبع لا؛ ولو كان له ناصرين فهل كانوا سينصرونه وينقذونه من أمر الله؟ بالطبع لا. فما كان رد كان رأي الذين قالوا عليه بالأمس إنه ذو حظ عظيم وتمنوا أن يؤتوا مثل ما أوتي قارون: {وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ}**القصص82**. وصار الذين تمنوا حاله بالأمس يقولون متوجعين ومعتبرين وخائفين من وقوع العذاب بهم: إن الله يوسِّع الرزق لمن يشاء من عباده؛ ويضيِّق على مَن يشاء منهم؛ لولا أن الله منَّ علينا فلم يعاقبنا على ما قلنا لَخسف بنا كما فعل بقارون؛ ألم تعلم أنه لا يفلح الكافرون؛ لا في الدنيا ولا في الآخرة؟

ذهب قارون المغرور المتكبر بما لديه: {قَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءهُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ. فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا

أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُون} **العنكبوت39-40.** ذهب قارون بالذهب والفضة ومتاع الدنيا وبقى لنا من بعده ولولد آدم كلهم درسا عظيما من رب العالمين إذ يقول: {تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِين} **القصص83.** بالطبع العاقبة للمتقين، فاللهم اجعلنا من المتقين.

موسى والخضر

ذات ليلة قام موسى نبي الله عليه السلام خطيبا في قومه فسأله بعضهم: من يا نبي الله أعلم أهل الأرض؟ فظن موسى أنه لا يوجد في الأرض من هو أعلم منه -طالما هو نبي الله وكليمه- فقال لهم: أنا أعلم أهل الأرض وأفقههم.

فأراد الله تعالى أن يعلمه درسا مفاده؛ أن العلم كله علم الله يؤتيه من يشاء من عباده، ولا يعلم العباد من علم الله إلا بما شاء سبحانه وتعالى: {وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء} وكذلك أن العلوم أصناف شتى لا يمكن حصرها بأي سبيل من السبل فمن أوتى علم ستجد آخر يجهله: {وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلا} فكان من الأنسب أن يقول الله أعلى وأعلم، فأوحى الله تعالى إليه قائلا: يا موسى هناك من عبادي بمجمع البحرين من هو أعلم منك.

فسأله موسى: وكيف يمكنني أن أجد عبدك هذا يا ربنا حتى أتعلم منه مما علمته؟ فأمره الله تعالى أن يأخذ معه حوتا (سمكة) في مكتل وقال له: متى فقدت هذ الحوت فلسوف تجد مكان عبدنا هذا. وعلى الفور أخذ موسى صبيه وخادمه يوشع بن نون (نبي الله فيما بعد) وانطلقا في رحلة طويلة بهدف التعلم من أعلم أهل الأرض وقتها بشهادة رب العالمين.

هذه القصة كلنا نعرفها وسمعناها كثيرا من قبل؛ مع إنه لم يتكرر ذكرها في كتاب الله تعالى إلا في موضع واحد في سورة الكهف في الثلاثة والعشرون آية من الآية ستون إلى الآية اثنان وثمانون.

قصة رائعة بالفعل وفيها من المعان العظيمة والخفايا والأسرار العجيبة التي تحير لها العقول لو تدبرناها جيدا؛ هي قصة الخضر؛ وهو شخصية عظيمة نسجت حولها الأساطير والحكاوي الكثيرة؛ فمثلا؛ **قيل عن الخضر:** أنه كان نبيا. وقيل: رسول. وقيل: ولي. وقيل: أنه كان علي مقدمة ذي القرنين؛ الذي قيل: أنه كان أفريدون، وذو الفرس الذي كان في زمن الخليل. وزعموا أنه شرب من ماء الحياة، فخلد، وهو باقي إلى الآن.

وقيل: أنه من ولد بعض من آمن بإبراهيم وهاجر معه من أرض بابل..

ويقال: إنه كان من سلالة إسحاق بن إبراهيم.[1] بل وجاء في أحاديث كلها منكرة وضعيفة أنه عاش حتى زمن محمد صلى الله عليه وسلم؛ بل وقابله، وأنه حيّ حتى الآن. **وقيل:** إنما سمي الخضر خضرا لأنه قعد على فروة بيضاء فاهتزت به وصارت خضراء.[2]

ونعود إلى قصتنا القرآنية العظيمة: ذهب نبي الله موسى وصبيه يوشع بن نون في تلك الرحلة وكله تصميم وعزيمة أن يصل إلى هذا العبد الذي أثنى الله تعالى عليه بالعلم ليتعلم منه مما علمه الله تعالى؛ ولو قضى في طلبه العمر بأكمله: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبا} **الكهف60.** ومجمع البحرين قيل فيهما كلاما كثيرا؛ والذي نراه أن كلمة البحرين لم ترد في كتاب الله إلا عندما يقصد بهما البحر المالح والبحر العذب الماء؛ كقوله تعالى: {وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج} **الفرقان53.** وكقوله: {مرج البحرين يلتقيان}**الرحمن19.** فلو تأكد لنا أن موسى كان حينئذ في مصر؛ فعليه يكون البحران المذكوران في قوله تعالى: {مجمع البحرين} هما مكان التقاء النيل بالبحر المتوسط أو بحر الروم كما كان يعرف؛ والله تعالى أعلى وأعلم.

ونعود إلى موسى وفتاه اللذان أجهدهما السفر فجلسا عند صخرة ليستريحا وليتناولا غذائهما؛ وبعد ذلك ناما وفي أثناء نومهما قفزت السمكة أو الحوت بأمر ربها من مكتلها إلى البحر واتخذت طريقها في البحر عجبا؛ فهم قد بلغوا مكان العبد المطلوب ولكنهم لم يعرفوا بعد: {فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبا}**الكهف61. حيث قيل:** أن ما تحت السمكة من الماء كان يتجمد ليترك أثره في البحر ظاهرا. وقام موسى وغلامه بعد ذلك من النوم ليكملا رحلتهما ولم يلاحظا أن السمكة قد اختفت، ولم يكن موسى قد أصابه التعب من قبل ولكنه لما تجاوز المكان المنشود بدأ يشعر بتعب شديد فطلب من غلامه أن يستريحا قليلا ويتناولوا الغذاء: {فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبا}**الكهف62.**

وإذ بالغلام يوشع بن نون لا يجد السمكة في المكتل فظن أنها سقطت منهما عند الصخرة التي باتا عندها الليلة الماضية فطلب من موسى أن يرتدا إليها متتبعين آثار أقدامهم ليصلا إلى مكانها الصحيح: {قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبا} **الكهف63.** فلما عادا إلى مكانهما السابق وجدا الطريق الذي

==

1: ابن كثير- 2/179-180

2: الطبري- 1/127

اتخذته السمكة في البحر وكان بالحق أمرا عجيبا، فعلم موسى أن تلك هى علامة مكان العبد المطلوب كما أخبره بذلك ربه عز وجل: {قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصا} **الكهف64.** وبالفعل وجد موسى بغيته، وجد الخضر عليه السلام وهو العبد الذي أثنى الله عليه بقوله عبدا علمناه من لدنا علما: أي علم بدون سبب ولا وسيط؛ **قال تعالى:** {فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْما}**الكهف65.** فعرض عليه موسى أن يكون تابعا له مطيع مقابل أن يعلمه مما علمه الله تعالى: {قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدا}**الكهف66.** والعلم الذي أوتيه الخضر من الله تعالى هو علم الغيب فعلم أن الرجل الذي يسأله هو موسى ابن عمران نبي بني إسرائيل وكذلك علم بأنه لا هو ولا غيره سيطيق تعلم هذا العلم الغيبي الذي لا يقدر ولا يصبر عليه إلا من أحاط به فقال له: {قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً.وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرا}**الكهف67-68.**

ولكن موسى ما كان ليقطع كل هذه المسافة بدون فائدة فأصر على تلقي العلم من الخضر ووعده أن يجده من الصابرين إن شاء الله تعالى وأنه لن يعصي له أي أمر، وقيد بالمشيئة لأنه لم يكن على ثقة من نفسه فيما التزم وهذه عادة الأنبياء والأولياء أن لا يثقوا بأنفسهم طرفة عين: {قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ صَابِراً وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرا}**الكهف69.** فوافق الخضر أن يصحبه موسى للتعلم ولكن شرط عليه شرط: {قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرا} **الكهف70. أي:** لا تسألني عن شيء حتى أحدثك أنا عنه.

أهل السفينة:

تبدأ الرحلة وكما نعرف فهم الآن على ضفة النهر وأرادا أن ينتقلا إلى الضفة الثانية منه، ولكن لا مال معهم يستأجروا به مركبا، ولكن أصحاب سفينة ما كانوا يعرفون الخضر ويعرفون صلاحه وتقواه قبلوا أن يقلّوهم إلى الضفة الأخرى دون أي مقابل؛ فما كان من الخضر إلا أن غافل أهل المركب ونزع من السفينة عدة ألواح ليعيبها؛ فظن موسى أنه يريد أن يغرقها فاستنكر هذه الفعلة على الخضر وخاصة أن أهل السفينة أكرموهم أفيكون هذا رد الجميل؟ {فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْرا}**الكهف71.** فذّكره الخضر بأنه قال له بأنه لن يستطيع معه صبرا؛ وذكره كذلك بالشرط الذي بينهما أن لا يسأله عن أي شيء يحدث حتى يحدثه هو نفسه عن أمر ذلك الشيء: {قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرا}

الكهف72. فتذكر موسى ما نسى وعرف أن هذا علم شاق على أحد أن يصبر عليه: {قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرا}**الكهف73.**

وقبل أن ننطلق إلى بقية هذه الرحلة المباركة فلنتوقف ههنا قليلا لنرى مابين السطور وما خلف الستور ونتدبر ونفكر فيما حدث. أما موسى فلم يكن يعلم السر حتى الآن ولكننا نعلمه، نعلم لماذا فعل الخضر مع أهل السفينة ما فعل فالذي كان في ظاهره ظلم وتعدي كان في باطنه رحمة وسترا. فالظاهر؛ أن الخضر أساء إلى أهل هذه السفينة بأن رد لهم جميل نقلهم إياه بدون أجر إلى المكان الذي يريد بأن خرق سفينتهم، وظاهر الأمر أنه يريد إغراقهم ولهذا استنكر موسى عليه هذه الفعلة بأن قال له: أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمرا. ولكن باطن الأمر أن الخضر قد رد لهم جميلهم الذي صنعوه معه أضعاف مضاعفة فقد علم بما علمه الله من الإطلاع على الغيب أن هناك ملكا قرصانا يتهجم على كل السفن ليأخذها من أهلها غصبا وهم أناس مساكين لا رزق لهم إلا بهذه السفينة: {أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً}. هذا هو السر الذي لم يعلمه لا موسى ولا غيره إلا رب العباد فقط؛ وهذا الفعل الذي فعله الخضر لا يتأتى إلا من كتب الله تعالى عليه أن يكون سببا لتغيير ما قدر الله من قبل؛ فلولا ذهاب موسى للبحث عن الخضر؛ وطلبه أن يتبعه ليتعلم منه مما علمه الله تعالى؛ ولولا لقاؤهم معا في هذا المكان؛ ولولا ركوبهم هذه السفينة بالذات؛ ولولا فعل الخضر؛ ما فعل لكانت هذه السفينة مغنما لهذا الملك القرصان الذي يأخذ كل سفينة غصبا. إذا كان الخضر سببا لتغيير ما قدر الله بقدر الله بسبب هذا الفعل الطيب؛ الذي فعله أهل السفينة المساكين الذين نقلوا الرجل الصالح الخضر ونبي الله موسى وغلامه يوشع بن نون دون مقابل أو أجرة فأراد الله تعالى أن يرد عليهم إحسانهم بأحسن منه.

إذا نتعلم من هذه القصة العظيمة درسا مهما ألا وهو أن العمل الصالح قد يغير ما قدر الله تعالى على عباده من شر إلى خير فأكثروا عباد الله من فعل الخير.

ولكن تعالوا نتخيل معاً كيف كان رد فعل أهل السفينة عندما نزل الخضر وضيفاه على الضفة المقابلة، بالطبع لما تبينوا وجود خرق في السفينة أسرعوا ليصلحوه وهم يسبون في الخضر ورفيقه اللذان ردا الجميل (من وجهة نظرهم) بأفظع إساءة؛ قائلين بلسان حالهم: لا حول ولا قوة إلا بالله ما هذا الزمن العجيب السيء أهله، الرجل الصالح نقلناه وضيوفه بدون أجر كرم منا وفضل؛ فيخرق السفينة ليغرقها ويغرقنا ويقطع رزقنا؛ لقد خُدِعنا فيه وهو لا صالح ولا يحزنون (فهو بالطبع موقف عجيب في ظاهره) وظلوا هكذا يسبون في الخضر وضيفه وينعون

ذلك اليوم الأسود الذي ساقه إليهم أو ساقهم إليه إلى أن هجم عليهم الملك بجنوده يريد أخذ سفينتهم منهم غصبا ولما رآهم يصلحون السفينة وأن بها خرق وأنها غير صالحة تركها لهم.
ووقتها ووقتها فقط علم أصحاب السفينة أن ما فعله الخضر بسفينتهم كان فيه الخير كل الخير لهم وأنه لو لم يفعل ما فعل لضاعت منهم سفينتهم بلا أدنى شك. ونتعلم من هذه القصة أيضا درسا مهما جدا هو أن بعض الأمور قد تحدث في حياتنا وقد نظن أن هذه الأمور شرا لنا فظاهرها يقول هذا فنكره هذه الأمور ونظن أن الله أراد بنا سوء ولكن لو صبرنا لعلمنا أن الله قد خبأ الخير لنا ولابد أن نردد ههنا قوله تعالى : {وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُون} الله يعلم وأنتم لا تعلمون.

قتل الغلام الصغير:

ونكمل القصة.. بالطبع أصبح موسى في موقف عصيب فما حدث أمامه لا يفهمه أبدا ولا يقدر على تفسيره! ونحن بالطبع نلتمس له العذر كل العذر فما حدث كان بالحق شيئا عجيبا إلى أن جاء من الخضر ما هو أكثر عجبا ودهشة: {فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَاماً فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُّكْرا}**الكهف74.** بينما الخضر وضيفاه على الضفة الثانية من النهر يتمشون إذ به يلمح طفلا يلعب بين الأطفال فينطلق وراءه الخضر مهرولا فأمسكه وقتله؛ فصعق موسى من تلك الفعلة التي في ظاهرها بشاعة وظلم فلم يتمالك نفسه وسأله رغم أنه في هذه المرة كان متذكرا لشرط الخضر عليه بأن لا يسأل؛ فقال له: أتقتل نفس زكية طيبة بريئة بغير نفس لقد جئت يا خضر شيئا عظيما منكرا. فقال له الخضر: {قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْرا}**الكهف75.** فتمالك نفسه موسى متذكرا أنه يتبعه ليتعلم منه، وأنه رجلا صالحا ولابد من شيئا ما خلف هذه الأفعال النكراء: {قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرا}**الكهف76.** موسى ههنا أيضا لا يعلم السر رغم أنه زعم مرة أنه أعلم أهل الأرض!
ولكن نحن على عكس موسى نعلم السر فيما فعله الخضر من فعلة ظاهرها البشاعة حيث قتل طفلا بريئا طاهرا لم يبلغ الحلم فلا ذنب عليه ولا إثم ولهذا قال موسى (أقتلت نفسا زكية بغير نفس) فالخضر فعل ما فعل بسبب؛ وهذا السبب هو أنه يعلم بعلم الغيب الذي أطلعه الله عليه أن هذا الصبي الغير محتلم سيكون كافرا طاغيا عندما يكبر؛ وسيرهق أبواه المؤمنان الصالحان طغيانا وكفرا؛ فأراد الله أن يبدلهما خيرا منه طفلا يكون بارا بهما ورحيما: {وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ

مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً. فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْما} **الكهف80-81.** هذا هو السر الذي لم يعلمه لا موسى ولا غيره إلا رب العباد فقط وهذا الفعل الذي فعله الخضر لا يتأتى إلا من كتب الله تعالى عليه أن يكون سببا لتغيير ما قدر الله من قبل بقدر الله، فلولا ذهاب موسى للبحث عن الخضر وطلبه أن يتبعه ليتعلم منه مما علمه الله تعالى؛ ولولا لقاؤهم معا في هذا المكان؛ ولولا ركوبهم هذه السفينة بالذات؛ ولولا وجود هذا الغلام في طريقهم؛ ولولا فعل الخضر ما فعل لكبر هذا الغلام وصار كافرا وأرهق والديه الصالحين طغيانا وكفرا. إذا كان الخضر سببا لتغيير ما قدر الله بقدر الله؛ وذلك بدون أي سبب بعكس المرة ألأولى؛ فالخضر لم يقابل والدا الطفل ولا يعرف عنهما سوى أنهما مؤمنان صالحان ولم يلاقي منهما لا خيرا ولا شرا. ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يحسن إليهما بسبب إيمانهما؛ فأرسل إليهما الخضر بتكليف إلهي ليغير ما قدره عليهما من ولدهما الكافر الطالح فقتله ليعوضهما الله عنه بآخر أرحم وأزكى منه.

ولكن تعالوا نتخيل معا كيف كان رد فعل أهل الولد لما علموا بأن أحدهم قتل ولدهم الصغير دون أي ذنب، بالطبع حزنوا كثيرا كثيرا وظلوا يسبون القاتل الآثم (بالطبع من وجهة نظرهم) ويقولون عنه انه أبشع مخلوق وأظلم من خلق على وجه الأرض. ودارت عليهم الأيام سوداء حزينة، وقد يكونوا احتسبوا ولدهم هذا عند الله تعالى حتى منّ الله عليهم بخير منه؛ فقد يكون قد تحقق فيهم قوله تعالى: {وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ. الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ. أُولَـئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُون}**البقرة155-157.** وأغلب الظن أن هذين الوالدين لم يفهما يوما الحكمة الإلهية العظيمة من وراء قتل ولدهم الصغير، وكيف أن الله تعالى قد ساق إليهم من يفعل هذا كرامة لهما وخيرا مستورا. فالخير الذي تحقق من وراء قتل هذا الغلام كان خيراً كبيرا لوالديه ولهذا الغلام بالخصوص؛ لأن الله تعالى قد كتب وقدر أن هذا الولد أو الغلام سيكون كافرا وسيدخل النار وأنه سيكون مصدرا لشقاء أمه وأبوه في كبرهما وهما المؤمنان الصالحان. فغير الله تعالى قدره بقدره فأرسل إليهما من أطلعه سبحانه على غيبه وأمره أن يقتل الولد قبل أن يكبر فيفسق ويكفر ويكون مصيره النار وبهذا يكون حقق لهذه العائلة المؤمنة خيرا كبيرا:

أوله: أنه أنجى ولدهم من النار. فقد قتله الخضر وهو طفلا صغيرا لم يبلغ الحلم بعد والمعروف أن الأطفال لا ذنب عليهم ولا إثم ومن مات منهم قبل البلوغ والتكليف يكون مصيره الجنة..

ثانيه: يبدل والديه بطفل آخر أزكى منه وأبر بهما. **وقيل:** أن الله تعالى من عليهم بفتاة طاهرة طيبة تزوجها بعد ذلك نبيا وأنجبت منه نبيا هدى الله به أمة.

ونتعلم من هذه القصة أيضاً نفس الدرس المهم جدا هو أن بعض الأمور قد تحدث في حياتنا وقد نظن أن هذه الأمور شرا لنا فظاهرها يقول هذا؛ فنكره هذه الأمور ونظن أن الله أراد بنا سوء ولكن لو صبرنا لعلمنا أن الله قد خبأ الخير لنا ولابد أن نردد ههنا قوله تعالى: {وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ} الله يعلم وأنتم لا تعلمون.

إقامة الجدار:

ونكمل القصة.. بالطبع أصبح موسى في موقف أكثر من عصيب فما حدث أمامه لا يفهمه أبدا ولا يقدر على فهمه ونحن بالطبع نلتمس له العذر كل العذر فما حدث كان بالحق شيئا عجيبا إلى أن دخلا الخضر وصاحبه قرية. وطافا على أهلها يطلبان الطعام والضيافة فأبوا أن يضيفوهما وهذا من طباع أهل البخل والشح فكيف لا يكرمون الغريب والجائع وعابر السبيل؟!

وفي الطريق وجدا حائطا أو جدارا آيلا للسقوط فذهب إليه الخضر وأعاده إلى مكانه كي لا يسقط، فتعجب موسى أشد العجب كيف يقابلنا أهل هذه القرية الخبيثة بالشح والبخل وتقابلهم أنت يا خضر بهذا الكرم والفضل؟ وتذكر بالتأكيد أصحاب السفينة وشعر بأن هناك تناقض فأصحاب السفينة أكرموهما؛ فخرق لهم الخضر سفينتهم، وأهل القرية بخلوا عليهما وأساءا إليهما فبقيم لهم الخضر جدارهم دون أجر؟ وهو المذكور في قوله تعالى: {فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرا}**الكهف77.**

وإلى هنا تنتهي الرحلة فقد تأكد لموسى أنه لن يعلم السر فيما فعل الخضر أبدا؛ فكل أفعاله في ظاهرها منكره وغريبة غير مفهومة، وصدق ظن الخضر أنه لن يطيق معه صبرا، وشعر بأنه لابد أن يفهمه سر كل ما حدث منه واستنكره موسى ولم يفهمه: {قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرا}**الكهف78.** وأخبره بسر كل واقعة من الوقائع: {أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبا}**الكهف79.** وهذه علمنا ما فيها من عبر ودروس.

{وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً. فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْما}**الكهف80-81.** وتلك أيضا علمنا سرها وعبرها ودروسها. {أَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ}**82الكهف.**

وهنا تبين لموسى موقف الخضر مما فعله من إقامة الجدار فلم يكن الخضر يكافئ أهل القرية البخلاء على شحهم وإساتهم وفادهم؛ بالعكس كان يعاقبهم من ناحية ويكافئ الغلامين من ناحية أخرى. فهو كان يعاقب أهل القرية الخبثاء لأنه كان في هذا الجدار الآيل للسقوط كنزا قد خبأه والد الغلامين فيه منذ زمن بعيد؛ ومات وبتعرض ذلك الجدار لظروف الجو كاد أن يسقط وينكشف الكنز المستور فيه؛ فإن حدث هذا فما الذي تتوقعه من أهل هذه القرية الخبيثة؟ بالطبع سيأخذون الكنز دون الغلامين اللذان لن يجدا منه أي شيء أليس كذلك؟ ولكن لصلاح أبيهما أراد الله أن يحفظ ماله لأولاده, وغالب الظن أنه قد دعا ربه بذلك واستودعه ماله ليكون لأولاده من بعده ومات، وقدر الله أن يحفظ له ماله وأن يجيب دعواه.

قيل في الكنز: أنه كان ذهبا. وقيل: كان علما. والأشبه أنه كان لوحا من ذهب، مكتوبا فيه علم.[1]

ولولا مرور الخضر وصاحبه بهذه القرية لضاع كنز الأولاد ولأخذه الخبثاء. ولكن ربك أراد أن يغير قدرا قدره بقدره وقضى أن يقيم الخضر ذلك الجدار ليحفظ للأولاد إرث أبيهما الذي كان صالحا. وهذا هو درس لكل من سيترك من بعده ذرية ضعيفة يخشى عليها من بعده؛ الله يأمره أن يتقي الله ويقول السديد من القول حفاظا لهؤلاء الأطفال اليتامي؛ **يقول تعالى:** {وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيدا} **النساء9.** وبالطبع نستطيع أن نقول أن لا والد الغلامين ولا الغلامين يعلم أبدا ما قدر الله تعالى؛ مما فعله الخضر لهم من إقامة الجدار ليحفظ للأيتام إرثهما، ونتخيل أن الغلامين لما كبرا وبلغا أشدهما سقط الجدار متهدما ليكشف عن الكنز الذي خبأه لهما والدهما فيه من قبل ذلك بسنوات عدة. وفي نهاية الرحلة كان لابد أن يؤكد الخضر على حقيقة هامة هي أن كل ما فعله لم يكن من أمره هو بل من أمر الله تعالى: {وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرا}**الكهف82.**

وأعتقد أن نبي الله موسى تعلم الدرس جيدا وعلم أن الله تعالى يؤتي علمه من يشاء والأفضل دوما أن نقول الله تعالى أعلى وأعلم .

==

1: ابن كثير- 178/2

ذو القرنين ويأجوج ومأجوج

جاء اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوه (كعادتهم ليختبروه) عن ذي القرنين؛ فأوحى الله إلى نبيه: {وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرا}**الكهف83.** فأخبرهم بأن ذي القرنين هذا مكن الله له في الأرض بأن كان ملكا أعطاه الله قدرة ما، وكان يأخذ في الأمور التي يصبو إليها أسبابها بجد واجتهاد حتى يصل إلى ما يريد مِن فَتْح المدائن وقهر الأعداء؛ وغير ذلك بأمر الله تعالى: {إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً. فَأَتْبَعَ سَبَبا} **الكهف84-85.**
وكان ذو القرنين يرتحل في الأرض شرقا غربا ليدل الناس إلى ربهم سبحانه وتعالى ويدعوهم إليه؛ **قال إسحاق:** وزعم مقاتل أنه كان يفتح المدائن ويجمع الكنوز، فمن اتبعه على دينه وتابعه؛ وإلا قتله.[1] {حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْماً قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنا}**الكهف86.** حتى إذا وصل إلى مغرب الشمس وجدها في مرأى العين (أي يراها الناظر هكذا) كأنها تغرب في عين حارة ذات طين أسود (وهو مكان محدد) ووجد عندها قوما ما. فقال الله له: يا ذا القرنين إما أن تعذبهم بالقتل أو غيره، إن لم يقروا بتوحيد الله، وإما أن تحسن إليهم، فتعلمهم الهدى وتبصرهم الرشاد: {قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُّكْراً. وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَاء الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرا}**الكهف87-88.** قال ذو القرنين: أمَّا مَن ظلم نفسه منهم فكفر بربه، فسوف نعذبه في الدنيا، ثم يرجع إلى ربه، فيعذبه عذابًا عظيمًا في نار جهنم. وأما مَن آمن منهم بربه فصدَّق به ووحَّده وعمل بطاعته فله الجنة ثوابًا من الله، وسنحسن إليه، ونلين له في القول ونيسِّر له المعاملة. ثم استمر ذو القرنين في رحلاته عبر العالم: {ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبا}**الكهف89.**
ثم رجع ذو القرنين متبعًا الأسباب التي أعطاه الله إياها. فرجع إلى شرق الأرض: {حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرا}**الكهف90.** حتى إذا وصل إلى مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم ليس لهم بناء يسترهم، ولا شجر يظلهم من الشمس؛ أي أناس بدائيون في مكان صحراوي؛ ليس فيه تلا ولا جبلا؛ وليس لهم بيوت يستترون بها من حر الشمس. ثم استمر في رحلته: {ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبا}**الكهف92.** ثم سار ذو القرنين آخذًا بالطرق والأسباب التي منحناها إياه.

==

1: ابن كثير- 544/2

من هو ذو القرنين:

نريد أن نعرف من هو ذا القرنين وهل هو نبي أم لا أم ماذا؟ بالفعل سئل رسول الله هذا السؤال من قبل فقال لا أدري. قال رسول الله صلي الله عليه وسلم: ما أدري تبع ألعينا كان أم لا. وما أدري ذا القرنين أنبيا كان أم لا. وما أدري الحدود كفارات لأهلها أم لا.[1] والشك من النبي عليه السلام كان قبل أن يبين له الله تعالى أمره؛ ثم أخبر أنه كان مسلما؛ فقال صلى الله عليه وسلم: لا تسبوا تبعا؛ فإنه كان قد أسلم.[2] كذلك القول في الكفارات؛ فيحتمل أنه صلى الله عليه وسلم قاله في وقت لم يأته فيه العلم عن الله ثم لما أتاه قال صلى الله عليه وسلم: من أصاب من ذلك شيئا فعوقب فهو كفارة له.[3] **وقيل:** كان ملكا. **قال سفيان الثوري:** بلغني أنه ملك الأرض كلها أربعة: مؤمنان وكافران؛ سليمان النبي، وذو القرنين، ونمورد، وبخت نصر.[4] **وقيل:** كان نبيا. **وقيل:** كان رسولا. **وقيل:** أن ذا القرنين هو الملك المقدوني الإسكندر الأكبر. كابن الأثير وغيره من المؤرخين.[5] **ولكن ابن تيمية في فتاويه أنكر هذا القول تماما؛ فقال:** وقد يظنون أن هذا هو (ذو القرنين) المذكور في القرآن، وأن أرسطو كان وزيرًا لذي القرنين، المذكور في القرآن، وهذا جهل. فإن هذا الإسكندر بن فيلبس لم يصل إلى بلاد الترك، ولم يبن السَّدّ، وإنما وصل إلى بلاد الفرس. وذو القرنين المذكور في القرآن وصل إلى شرق الأرض وغربها، وكان متقدمًا على هذا، يقال: إن اسمه الإسكندر بن دارا، وكان موحدًا مؤمنًا، وذاك مشركًا، كان يعبد هو وقومه الكواكب والأصنام، ويعانون السحر، كما كان أرسطو وقومه من اليونان مشركين يعبدون الأصنام، ويعانون السحر، ولهم في ذلك مصنفات، وأخبارهم مشهورة، وآثارهم ظاهرة بذلك، فأين هذا من هذا؟ والراجح عندي أن ذا القرنين هذا كان من الملوك الصالحين ويؤيده: **قال مجاهد:** ملك الأرض مؤمنان وكافران فالمؤمنان سليمان وذو القرنين، والكافران بختنصر ونمرود وسيملكها خامس من هذه الأمة.[6] **وهو ما أكده ابن كثير؛ فقال:** والصحيح أنه كان ملكا من الملوك العادلين.[7]

==

1: خرجه السيوطي عن أبي هريرة وصححه الألباني

2: خرجه السيوطي عن سهل بن سعد وصححه الألباني

3: جزء من حديث خرجه الشيخان عن عبادة بن الصامت وصححه الألباني

4: ابن كثير- 543/2

5: انظر ابن الأثير- 218/1

6: مجموع فتاوى ابن تيمية

7: ابن كثير- 537/2

وقال عمن قال أن ذي القرنين هو الإسكندر: الأول -ذو القرنين- كان عبدا مؤمنا صالحا؛ وملكا عادلا؛ وكان وزيره الخضر، وقد كان نبيا على ما قررناه قبل هذا. وأما الثاني؛ فكان مشركا، وكان وزيره فيلسوفا، وقد كان بين زمانيهما أزيد من ألفي سنة. فأين هذا من هذا، لا يستويان، ولا يشتبهان، إلا على غبي لا يعرف حقائق الأمور.[1] **وروي:** إن الله سخر لذي القرنين السحاب يحمله حيث أراد. والله أعلم.[2] **وروي عن علي بن أبي طالب؛ أنه سئل عن ذي القرنين؛ فقال:** كان عبدا ناصح الله فناصحه، دعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه فمات، فأحياه الله فدعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه فمات، فسمي ذا القرنين.[3]

ونعود إلى ذي القرنين ورحلاته:

في أثناء ترحال ذو القرنين: {حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْماً لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلا} **الكهف93.** وصل الملك الصالح ذي القرنين إلى مكان ما (لا يمكن القطع به) ولكن أغلب الأمر أنه لمكان بين جبلين فوجد من دونهما قوما لهم لغة ما غير معروفة وبالكاد استطاع أن يتواصل معهم. **وقيل:** إن هؤلاء هم التُرك، أبناء عم يأجوج ومأجوج.[4] فذكر هؤلاء أن يأجوج ومأجوج كثيرا ما يعتدون عليهم ويفسدون في بلادهم؛ ويقطعون السبل عليهم: {قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً} **الكهف94.** فقالوا له أن هناك قوما أو قبيلتين اسميهما يأجوج ومأجوج يفسدون علينا حياتنا ومعيشتنا فهل نجعل لك أجرا فتجعل بيننا وبينهم سداً وحاجزا فلا يصلون إلينا. فاستنكر عليهم قولهم نجعل لك خرجا فقد أعطاه الله من الخير الكثير والكثير فلا ينتظر منهم ولا من غيرهم شيئا؛ ولكن طلب منهم أن يجمعوا له رجالا وآلات ليبني بينهم وبين يأجوج ومأجوج سدا: {قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً. آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرا}**الكهف95-96.** فقال لهم أعطوني قطع الحديد، حتى إذا جاؤوا به ووضعوه وحاذوا به جانبي الجبلين، قال للعمال: أجّجوا

==

1: ابن كثير- 542/2

2: نفسه- 538/2

3: نفسه- 539/2

4: نفسه- 542/2

النار، حتى إذا صار الحديد كله نارًا، قال: أعطوني نحاسًا أُفرغه عليه فصار قطعة واحدة حصينة منيعة: {فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبا}**الكهف97.** فما استطاعت يأجوج ومأجوج أن تصعد فوق السد؛ لارتفاعه وملاسته، وما استطاعوا أن ينقبوه من أسفله لبعد عرضه وقوته وصلابته.

من هم يأجوج ومأجوج؟

دعونا نتوقف لحظات عند هذه النقطة لنوضح أمورا ما تخص هذين الأمتين يأجوج ومأجوج ، فمن هما وأين هما؟ أما من هم؟ فهم من ولد آدم مثلنا مثلهم؛ **قيل فيهم:** هم من بني آدم، ويخرجون في آخر الزمان، وهم في جهة الشرق، وكان الترك منهم فتركوا دون السد وبقى يأجوج ومأجوج وراء السد، والأتراك كانوا خارج السد. **ودليل أنهم من ذرية آدم؛** قوله صلى الله عليه وسلم: يقول الله تعالى يوم القيامة: يا آدم؛ قم فابعث بعث النار من ذريتك. فيقول: يارب؛ وما بعث النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار؛ وواحد إلى الجنة. فحينئذ يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد. قالوا: يا رسول الله؛ أيّنا ذلك الواحد؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أبشروا؛ فإن منكم واحدا، ومن يأجوج ومأجوج ألف.[1]

وهم من ذرية نوح؛ لقوله تعالى في نوح: {وجعلنا ذريته هم الباقين}**الصافات77.** وسبق أن ذكرنا: أن نوحا ولد له ثلاثة؛ وهم سام وحام ويافت. فسام أبو العرب، وحام أبو السودان، ويافث أبو الترك؛ فيأجوج ومأجوج طائفة من الترك؛ وهم مغلُ المغول، وهم أشد بأسا وأكثر فسادا من هؤلاء.[2] وإن كنت لا أعتقد أنهم يعيشون فوق ظاهر الأرض أو سطحها فإن كانوا لرأيناهم (حتى بالأقمار الصناعية)، وأغلب الظن أنهم إما في قلب جبل ما أو تحت سطح الأرض ولكن في مكان تصلهم فيه الشمس ولابد؛ فلا حياة بدون ضوء الشمس كما نعلم وأيضا في مكان به ماء ونبات وحيوان وكافة الظروف اللازمة لمعايش ابن آدم وإلا كيف يحيون ويعيشون؟.{قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاء وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاء وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّا}**الكهف98.** قال ذو القرنين: هذا الذي بنيته حاجزًا عن فساد يأجوج ومأجوج رحمة من ربي بالناس، فإذا جاء وعد ربي بخروج يأجوج ومأجوج جعله دكاء منهدمًا مستويًا بالأرض، وكان وعد ربي حقًّا.

==

1: خرجه السيوطي عن أبي سعيد وصححه الألباني

2: ابن كثير- 553/2

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الساعة لا تقوم حتى تكون عشر آيات: الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب، ونزول عيسى، وفتح يأجوج ومأجوج، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس إلى المحشر تبيت معهم حيث باتوا وتقيل معهم حيث قالوا.[1] فخروج يأجوج ومأجوج هو من علامات يوم القيامة.

كيف سيخرج يأجوج ومأجوج على الناس؟

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن يأجوج ومأجوج يحفرون كل يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم ارجعوا فسنحفره غدا، فيعيده الله أشد ما كان، حتى إذا بلغت مدتهم وأراد الله أن يبعثهم على الناس حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم: ارجعوا فسنحفره غدا إن شاء الله تعالى. واستثنوا فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه فيحفرونه ويخرجون على الناس. ثم قال لنا رسول الله صلي الله عليه وسلم عما سيفعله يأجوج ومأجوج عندما سيخرجون من محبسهم فيخرجون على الناس كما قال الله عز وجل: {من كل حدب ينسلون} فيغشون الناس وينحاز المسلمون عنهم إلى مدائنهم وحصونهم ويضمون إليهم مواشيهم ويشربون مياه الأرض حتى إن بعضهم ليمر بالنهر فيشربون ما فيه حتى يتركوه يبسا حتى إن من يمر من بعدهم ليمر بذلك النهر فيقول قد كان هاهنا ماء مرة، حتى إذا لم يبق من الناس أحد إلا أحد في حصن أو مدينة قال قائلهم: هؤلاء أهل الأرض قد فرغنا منهم بقى أهل السماء.ثم يهز أحدهم حربته ثم يرمي بها إلى السماء فترجع إليه مختضبة دما للبلاء والفتنة فبينما هم على ذلك إذ بعث الله عز وجل دودا في أعناقهم كنغف الجراد الذي يخرج في أعناقه. **وفي رواية أخرى:** ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون، فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها ويمر آخرهم؛ فيقولون: لقد كان بهذه مرة ماء.

ثم يسيرون حتى ينتهوا إلى جبل الخمر -وهو جبل بيت المقدس-؛ فيقولون: لقد قتلنا من في الأرض هلم فلنقتل من في السماء. فيرمون بنشابهم إلى السماء فيرد الله عليهم نشابهم مخضوبة دما.

ويحصر نبي الله عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيرا من مائة دينار لأحدكم اليوم؛ فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه؛ فيرسل الله عليهم النغف في رقابهم فيصبحون فرسى كموت

==

1: خرجه السيوطي عن حذيفة بن أسيد وصححه الألباني

نفس واحدة، ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمهم ونتنهم؛ فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله عز وجل؛ فيرسل الله طيرا كأعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله، ثم يرسل الله قطرا لا يكن منه بيت مدر ولا وبر فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة؛ ثم يقال للأرض انبتي ثمرتك ودري بركتك.[1] حتى بعد زوالهم من الأرض سيبقى لنا من آثارهم ذكرا، فستبقى لنا من بعدهم أقواسهم وحرابهم وأسلحتهم الخشبية يوقد بها الناس سبعة سنين. **قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:** سيوقد المسلمون من قسي يأجوج ومأجوج ونشابهم وأترستهم سبع سنين.[2]

أعتقد إننا الآن عرفنا مدى رحمة رب العالمين بحبسهم عنا طوال هذه العقود من الزمن وهو الذي أكده الله تعالى في قوله: {قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاء وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاء وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا} **الكهف98.**

وقد روي: أن الخليفة الواثق بعث رسلا من جهته، وكتب لهم كتبا إلى الملوك يوصلونهم من بلاد إلى بلاد حتى ينتهوا إلى السد، فيكشفوا عن خبره، وينظرون كيف بناه ذو القرنين، وعلى أي صفة، فلما رجعوا أخبروا عن صفته، وأن فيه بابا عظيما وعليه أقفال، وأنه بناء محكم شاهق منيف جدا، وأن بقية اللبن الحديد والآلات في برج هناك، وذكروا أنه لايزال هناك حرس لتلك الملوك المتاخمة لتلك البلاد، ومحلته في شرقي الأرض في جهة الشمال، في زاوية الأرض الشرقية الشمالية. ويقال: إن بلادهم متسعة جدا، وإنهم يقتاتون بأصناف من المعايش، من حراثة، وزراعة، واصطياد من البر ومن البحر، وهم أمم وخلق لا يعلم عددهم إلا الذي خلقهم.[3]

==

1: جزء من حديث خرجه السيوطي عن النواس بن سمعان وصححه الألباني

2: خرجه السيوطي عن النواس وصححه الألباني

3: ابن كثير- 577/2

داود ومن تسوروا عليه المحراب

هو نبي الله داود بن إيشا بن عويد بن باعز بن سلمون بن نحشون بن عويناذب بن إرم بن حصرون بن فارص بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل.[1] **قيل:** كان داود عليه السلام؛ قصيرا أزرق العينين، قليل الشعر، طاهر القلب نقيه.[2] والمعلوم أن داود كان من بني إسرائيل؛ وأنه هو من قتل جالوت: {وقتل داود جالوت وءاتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء} **البقرة251. قيل:** سبب ملكه حينئذ أن الله أوصى إلى أشمويل(نبيهم وقتئذ) ليأمر طالوت بغزو مدين وقتل من بها؛ فسار إليها وقتل من بها إلا ملكهم فإنه أخذه أسيرا. فأوحى الله إلى أشمويل؛ قل لطالوت: آمرك بأمر فتركته؟ لأنزعن الملك منك ومن بنيك، ثم لا يعود فيكم إلى يوم القيامة. وأمر اشمويل بتمليك داود فملّكه؛ وسار إلى جالوت فقتله والله أعلم. فلما ملك بني إسرائيل جعله الله نبيا وملكا، وأنزل عليه الزبور، وعلمه صنعة الدروع وهو أول من عملها، وألان له الحديد، وأمر الجبال والطير يسبحون معه إذا سبح، ولم يعط الله أحدا مثل صوته.[3]

آتى الله داود ملكا وفضلا عظيما: فسخر معه الجبال والطير يسبحن معه: {وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير}**الأنبياء79.** وعلمه صنع الدروع من الحديد: {وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم}**الأنبياء80. قال الحسن البصري وقتادة والأعمش:** كان الله قد ألان له الحديد حتى كان يفتله بيده، لا يحتاج إلى نار ولا مطرقة.[4] وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده.[5] **وقال عليه السلام:** أحب الصيام إلى الله تعالى صيام داود، وأحب الصلاة إلى الله تعالى صلاة داود؛ كان ينام نصفه ويقوم ثلثه وينام سدسه، وكان يفطر يوما ويصوم يوما.[6] وكما سبق وقلنا أنه لما قتل داود جالوت أحبته بني إسرائيل ومالوا إليه وإلى ملكه عليهم، وصار داود بالفعل ملكا على بني إسرائيل. وقد آتاه الله تعالى الزبور: {وءاتينا داود زبورا}**النساء163.** والزبور كتاب مشهور، أنزل في شهر رمضان، وفيه من المواعظ والحكم ما هو مشهور معروف لمن نظر فيه.[7]

==

1: ابن كثير- 300/2 **2: نفسه**

3: ابن الأثير- 169/1 **4: ابن كثير- 302/2**

5: خرجه السيوطي عن المقدام وصححه الألباني

6: خرجه ابن ماجه في سننه عن عبد الله بن عمرو وصححه الألباني- 237/2

7: ابن كثير- 307/2

أهل السبت:

في ملك داود مسخ الله أهل أيلة قردة، وأيلة مدينة على ساحل البحر الأحمر مما يلي الشام وهي آخر الحجاز وأول الشام؛ وهم أهل السبت المذكورين في كتاب الله؛ وسبب ذلك أنهم كانوا تأتيهم يوم السبت حيتان البحر كثيرا فإذا كان غير يوم السبت لا يجئ إليهم منها شيء؛ فعملوا على جانب البحر حياضا كبيرة وأجروا إليها الماء؛ فإذا كان آخر نهار يوم الجمعة يتحول الماء إلى الحياض فتدخلها الحيتان ولا تقدر على الخروج عنها فيأخذونها يوم الأحد؛ فنهاهم بعض أهلها فلم ينتهوا فمسخهم الله قردة، وبقوا ثلاثة أيام وهلكوا.[1]

نبأ متسوري المحراب:

جاء في كتاب الله تعالى حكايتهم؛ فقال: {وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ. إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاء الصِّرَاطِ. إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ. قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنْ الْخُلَطَاء لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ. فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآب}**ص21-25.** وقد ذكر كثير من المفسرين من السلف والخلف ههنا قصصا وأخبارا أكثرها إسرائيليات، ومنها ما هو مكذوب لا محالة.[2] والذي نراه في هذه المسألة أنه بالفعل خصمان بغى بعضهما على الآخر وتحاكما إلى النبي الملك داود عليه الصلاة والسلام، فأخطأ الملك النبي بأن أصدر حكمًا قاطعًا بظلم أحدهما للآخر وذلك دون سماع الآخر مما يخل بعدالة الحكم، فكان حتما على نبي الله داود أن لا يكتفي بقول أحدهما حتى لو كان ظاهر قوله أنه مظلوم ومبغي عليه؛ لعله لو سمع الآخر لتبدلت وجهة نظره ولوجدنا الحق مع الآخر صاحب التسعة والتسعون نعجة، والذي لم نسمع دفاعه عن نفسه، وهنا فقط علم داود أنه لم يطبق العدل المأمور بتطبيقه في الأرض وهنا فقط خر ساجداً وظن أن الله تعالى فتنه، وهو بالفعل فتن ولكن الله تعالى غفر له، ودليله قوله تعالى في ختام تلك القصة: {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ

==============================

1: ابن الأثير- 170/1

2: ابن كثير- 309/2

عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ}**ص26.** وأما استغفاره وخروره ساجدا ومغفرة الله تعالى له فالأنبياء عليهم السلام أولى الناس بهذه الأفعال الكريمة والاستغفار فعل خير لا ينكر من ملك ولا من نبي ولا من مذنب ولا من غير مذنب؛ فالنبي يستغفر الله لمذنبي أهل الأرض والملائكة؛ كما قال الله تعالى: {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ}**غافر7. قال ابن حزم**: وأما قوله تعالى عن داود عليه السلام: وظن داود إنما فتناه.. وقوله تعالى: فغفرنا له ذلك. فقد ظن داود عليه السلام أن يكون ما أتاه الله عز وجل من سعة الملك العظيم فتنة؛ فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو في أن يثبت الله قلبه على دينه فأستغفر الله تعالى من هذا الظن فغفر الله تعالى له هذا الظن إذ لم يكن ما أتاه الله من ذلك فتنة.[1]

عمر داود ووفاته:

قال صلى الله عليه وسلم: لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة، ثم جعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصا من نور، ثم عرضهم على آدم؛ فقال: أي رب؛ من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك. فرأى رجلا منهم أعجبه نور ما بين عينيه. فقال: أي رب؛ من هذا؟ قال: رجل من ذريتك في آخر الأمم يقال له داود. قال: أي رب؛ كم عمره؟ قال: ستون سنة. قال: فزده من عمري أربعين سنة. قال: إذن يكتب ويختم ولا يبدل. فلما انقضى عمر آدم جاء ملك الموت؛ فقال: أولم يبق من عمري أربعون سنة! قال: أو لم تعطها ابنك داود؟ فجحدت ذريته ونسى آدم فنسيت ذريته وخطئ آدم فخطئت ذريته.[2] وعليه يكون يكون عمر داود بلا شك مائة سنة. وقال أهل الكتاب: كان مدة ملكه أربعين سنة.[3]

قال ابن عباس: مات داود عليه السلام فجأة، وكان يُسبتُ، وكانت الطير تظله.. وقال الحسن: مات داود عليه السلام وهو ابن مائة سنة، ومات يوم الأربعاء فجأة..[4]

==

1: الفصل في الملل والأهواء والنحل- 315/2

2: خرجه السيوطي عن أبي هريرة وصححه الألباني

3: ابن الأثير- 174/1

4: ابن كثير- 321/2

سليمان وبلقيس

هو نبي الله سليمان بن داود بن إيشا بن عويد بن باعز بن سلمون بن نحشون بن عميناذب بن إرم بن حصرون بن فارص بن يهودا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، أبو الربيع، نبي الله ابن نبي الله.[1] لما توفي داود ملك بعده ابنه سليمان على بني إسرائيل؛ وكان ابن ثلاث عشرة سنة وآتاه مع الملك والنبوة.[2]

أعطى الله سبحانه وتعالى نبي الله سليمان بن داود ملك وعلم عظيمين لم يؤتى أحد من قبله ولا من بعده مثل ما أوتى: {قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّاب} **ص35.** وهي خاصة بسليمان دون غيره من الناس؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله في وجهي؛ فقلت: أعوذ بالله منك ثلاث مرات؛ ثم قلت: ألعنك بلعنة الله التامة فلم يستأخر؛ ثلاث مرات، ثم أردت أن آخذه؛ والله لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقا يلعب به ولدان أهل المدينة.[3] وكان أبيض جسيما كثير الشعر يلبس البياض.[4] وكان أبوه يستشيره في حياته ويرجع إلى قوله فمن ذلك ما قصه الله تعالى في كتابه في قوله: {وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين. ففهمناها سليمان وكلا ءاتينا حكما وعلما}**الأنبياء78-79. قيل:** أن لهؤلاء القوم كان لهم كرم (شجر العنب)، فنفشت فيه غنم قوم آخرين؛ أي: رعته بالليل؛ فأكلت شجرة بالكلية؛ فتحاكموا إلى داود فحكم لأصحاب الكرم بقيمته، فلما خرجوا على سليمان؛ قال: بم حكم لكم نبي الله؟ فقالوا: بكذا وكذا. فقال: أما لو كنت أنا لما حكمت إلا بتسليم الغنم إلى أصحاب الكرم، فيشتغلونها نتاجا ودرا حتى يُصلح أصحاب الغنم كرم أولئك ويردوه إلى ما كان عليه، ثم يتسلموا غنمهم، فبلغ داود عليه السلام ذلك؛ فحكم به.[5]

==

1: تاريخ دمشق- 230/22

2: ابن الأثير- 175/1

3: خرجه السيوطي عن أبي الدرداء وصححه الألباني

4: ابن الأثير- 175/1

5: ابن كثير- 342/2

ما الذي أعطاه الله لسليمان عليه السلام من الملك؟

سخر له الرياح:

أعطاه الله سبحانه وتعالى الريح تجري بأمره طيّعة مع قوتها وشدتها حيث أراد: {فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاء حَيْثُ أَصَاب}**ص36. وقال:** {وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْر}**سبأ12.** **أي:** سخرنا لسليمان الريح تجري من أول النهار إلى انتصافه مسيرة شهر؛ ومن منتصف النهار إلى الليل مسيرة شهر بالسير المعتاد. **قال الحسن البصري:** كان يغدو من دمشق فينزل بإصطخر مسيرة شهر، وبين إصطخر وكابل مسيرة شهر.[1]

سخر له شياطين الجن:

سخر له شياطين الجن تطيعه ولا تعصى له أمرا؛ فمنهم من يغوص له في البحر ليستخرج له اللآلئ؛ ومنهم من يبني له ما يشاء من أبنية ودور وقصور وتماثيل وغيرها: {وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاء وَغَوَّاص} **ص37.** {وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِين} **الأنبياء 82.** {وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ. يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَات}**سبأ12-13.** **يعملون له ما يشاء من محاريب:** أبنية مرتفعة يصعد إليها بدرج. **وتماثيل:** جمع تمثال وهو كل شيء مثلته بشيء؛ أي صور من نحاس وزجاج ورخام ولم يكن اتخاذ الصور حراما في شريعته. **وجفان:** جمع جفنة. **كالجواب:** جمع جابية وهو حوض كبير يجتمع على الجفنة ألف رجل يأكلون منها! **وقدور راسيات:** ثابتات لها قوائم لا تتحرك عن أماكنها تتخذ من الجبال يصعد إليها بالسلالم. **وأسال له عين القطر:** من النعم التي أنعم الله تعالى بها على عبده ونبيه سليمان؛ أنه أسال له عين القطر: {أسلنا لَهُ عَيْنَ الْقِطْر}**سبأ12. أي:** وأسلنا له النحاس كما يسيل الماء؛ يعمل به ما يشاء. **قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة وغير واحد:** هو النحاس. **قال قتادة:** وكانت باليمن؛ أنبعها الله له. **قال السدي:** ثلاثة أيام فقط، أخذ منها جميع ما يحتاج إليه للبنايات وغيرها.[2]

وعلمه منطق الطير: ومن النعم التي أنعم الله تعالى بها على نبيه سليمان أن علمه منطق ولغات الطير: {وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْر}**النمل16.**

==

1: ابن كثير- 334/2

2: ابن كثير- 344/2

وجيشه من الإنس والجن والطيروالحيوان: قال تعالى: {حُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُون}**النمل17. أي:** وجُمِع لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير في مسيرة لهم, فهم على كثرتهم لم يكونوا مهمَلين؛ بل كان على كل جنس من يَرُدُّ أولهم على آخرهم كي يقفوا جميعًا منتظمين. **وروي:** أن سليمان كان عسكره مائة فرسخ؛ خمسة وعشرون للإنس، وخمسة وعشرون للجن، خمسة وعشرون للوحش، وخمسة وعشرون للطير.(1)

كل هذا كان من ملك وعلم نبي الله سليمان عليه السلام أعطاه ربه كل هذا وأطلق يديه فقال له: {هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ. وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآب}**ص39-40. وقال تعالى:** وأوتينا من كل شيء. أي: من كل ما يحتاج الملك إليه؛ من العدد والآلات والجنود والجيوش والجماعات من الجن والإنس والطيور والوحوش والشياطين السارحات، والعلوم والفهوم، والتعبير عن ضمائر المخلوقات من الناطقات والصامتات.(2) أعتقد إننا ألممنا بهذا الملك العظيم وهذا الفضل الأعظم الذي أعطاه الله سبحانه وتعالى لعبده ونبيه سليمان بن داود.

سليمان والهدهد:

كان سليمان اختار من كل طير طيرا، فجعله رأس تلك الطير، فإذا أراد أن يسائل شيئا من تلك الطير عن شيء سأل رأسها؛ وفي أحد الأيام كان سليمان يتفقد جيشه العرمرم من الإنس والجن والطير والحيوان فلم يجد أحد الطيور وهو الهدهد في موقعه فغضب غضبا شديدا؛ وتوعده بأنه لو لم يأتي بحجة حقيقة عن سبب غيابه هذا ليذبحه أو ليعذبه عذابا شديدا: {وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ. لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِين}**النمل20-21.** ولم يمر من الوقت الكثير حتى أتى الهدهد فبادر النبي الملك سليمان؛ فقال له: إنني أتيتك بخبر يقين من مملكة سبأ وقص له ما شاهده هناك: {فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ. إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ. وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُون}**النمل22-24.**

واسمع إلى قول الهدهد الآتي وستتعجب أن هذا قول طير وستشهد بالحق أنه طائر حكيم: {أَلَّا

==

1: الطبري- 163/1

2: ابن كثير- 325/2

يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ. اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ}**النمل25-26.** فأمر نبي الله الملك سليمان بن داود بكتابة رسالة ليحملها الهدهد إلى ملكتهم هذه ليلقه إليها ثم ينتظر ليرى ماذا سيفعلون ويقولون: {قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ. اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ. قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ. إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ}**النمل27-31.**

هذه هي بلقيس ملكة سبأ في بلاد اليمن؛ قيل هي: بلقيس بنت البشرخ.[1] **وقيل:** هي بلقمة ابنة أنيشرح بن الحارث بن قيس بن صيفي بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان.. **وقيل:** في نسبها غير ذلك.. **وقيل:** إن أمها جنية ابنة ملك الجن، واسمها رواحة بنت السكر.. وإنما أبوها إلى الجن لأنه قال: ليس في الإنس لي كفؤة فخطب إلى الجن فزوجوه.[2] **وقيل:** أن قومها ملكوا عليهم بعد أبيها رجلا؛ فعم به الفساد، فأرسلت إليه تخطبه فتزوجها، فلما دخلت عليه سقته خمرا، ثم حزت رأسه؛ ونصبته على بابها، فأقبل الناس عليها وملكوها عليهم.[3] وكانت ملكتهم بلقيس امرأة حكيمة عاقلة فجمعت وزرائها أجمعون لتشاورهم في الأمر حتى لا تكون متفردة بالرأي وحدها: {قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ. قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ. قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ. وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُون}**النمل32-35.**
قالت: إني مرسلة إليهم بهدية. فإن قبلها فهو من ملوك الدنيا فنحن أعز منه وأقوى، وإن يقبلها فهو نبي من الله.

وأشار وزراء الملكة عليها؛ فقالوا: أننا قوما أهل حرب ونزال وذو قوة وبأس في مواجهة الأهوال فإن كنت تنوين الحرب فنحن أهل لها والأمر أولا وأخيرا لك. فنظرت المرأة الحكيمة إلى الأمر بزاوية مختلفة تماما فقالت لهم أنه لو قدر علينا ودخل بلادنا سيفعل مثل ما يفعل بقية الملوك سيجعل أعزة قومها أذلها وسيفسد البلاد، لهذا سأرسل إليه بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون. وبالفعل أرسلت لهم بالهدية وبالطبع لم تكن مهمة المرسلون بالهدية حمل الهدية للملك سليمان

==

1: ابن كثير- 330/1

2: ابن الأثير- 176/1

3: ابن كثير- 330/2

فقط ولكن أيضا كانوا كعيون للملكة لترى ما لدى سليمان من قوة. وبالطبع بصر المرسلون ما لدى سليمان من جيش فيه الإنس والجن والحيوان والطير. {فَلَمَّا جَاء سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ. ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ. قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِين} **النمل36-38.**

رد عليهم هديتهم وحذرهم من بطشه، فما هداياهم بجانب الملك الذي من الله به عليه؛ ثم رجع سليمان إلى ملأه وجيشه وسألهم من يذهب إلى اليمن إلى مملكة سبأ ليحمل عرش تلك الملكة؛ وكان عرشا عظيما مرصعا بالياقوت والجواهر الثمينة؛ ويعود به إلى ههنا في الشام قبل أن يأتوه طائعين مسلمين؟ فقال عفريت من الجن؛ وهو الجن القوي المتمرد أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك هذا. وقال آخر وهو الذي عنده علم من الكتاب؛ وقيل أنه آصف بن برخيا؛ وقيل: أنه كان ابن خالة سليمان. وكان عنده علم اسم الله الأعظم الذي إذا ما دعى به أجاب وما سئل به أعطى؛ قال: أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك: {عِفْريتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ. قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُك} **النمل39-40. أي:** قبل أن يرجع إليط طرفُك إذا نظرت به إلى أبعد غاية منك ثم أغمضته. فأذن له سليمان فدعا الله؛ فأتى بالعرش: {فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيم}**النمل40.** ثم طلب سليمان من ملأه أن ينكروا لها عرشها؛ أي يضعوا عليه ما يغير ملامحه؛ ولننظر هل ستتعرف عليه أم لا؟ {قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ. فَلَمَّا جَاءتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِين}**النمل41-42.**

فلما جاءت ملكة سبأ إلى سليمان في مجلسه قيل لها: أهكذا عرشك؟ قالت: إنه يشبهه. فظهر لسليمان أنها أصابت في جوابها؛ وقد علمت قدرة الله وصحة نبوة سليمان عليه السلام؛ فمن أتى بعرشها قبل أن تأتي هي؛ لهو قادر على إزالة ملكها تماما وكليا؛ نعم إنها كانت كافرة ونشأت بين قوم كافرين؛ واستمرت على دينهم؛ ولكن لها من الذكاء والفطنة ما تعرف به الحق من الباطل. ثم دعاها نبي الله الملك سليمان أن تدخل إلى قصره: {قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِين} **النمل44. قيل لها:** ادخلي القصر؛ وكان صحنه من زجاج تحته ماء؛ فلما رأته ظنته ماء تتردد أمواجه؛ وكشفت عن ساقيها لتخوض الماء؛ فقال لها سليمان: إنه

صحن أملس من زجاج صاف والماء تحته. فأدركت عظمة ملك سليمان؛ وقالت: رب إني ظلمت نفسي بما كنت عليه من الشرك؛ وانقادتُ متابعة لسليمان داخلة في دين رب العالمين. **وقيل:** نكحها سليمان وأحبها حبا شديدا، وردها إلى ملكها باليمن، فكان يزورها مرة يقيم عندها ثلاثة أيام.[1]

سليمان والنساء:

كان نبي الله سليمان يطيق من التمتع بالنساء أمرا عظيما جدا؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن سليمان بن داود؛ قال: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة؛ تلد كل امرأة غلاما؛ فطاف عليهن، فلم تلد امرأة منهن إلا امرأة نصف غلام؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لو قال إن شاء الله لكان كما قال.[2] **وفي رو اية:** لأطوفن على مائة امرأة.[3]

وقد ذكر غير واحد من السلف: أنه كانت لسليمان من النساء ألف امرأة؛ سبعمائة بمهور، وثلثمائة سراري. وقيل بالعكس: ثلثمائة حرائر وسبعمائة من الإماء.[4]

وفاة سليمان:

قال تعالى: {فلما قضينا عليه الموت ما دلهم علي موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خرّ تبينت الجنُ أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين}**سبأ14. قيل:** كان سليمان عليه السلام يتجرد في بيت المقدس السنة والسنتين، والشهر والشهرين، وأقل من ذلك وأكثر، يُدخل طعامه وشرابه، فأدخله في المرة التي توفى فيها؛ فكان بدء ذلك أنه لم يكن يوم يصبح فيه إلا نبتت في بيت المقدس شجرة؛ فيأتيها فيسألها: ما اسمك؟ فتقول الشجرة: اسمي كذا وكذا. فإن كانت لغرس غرسها، وإن كانت نبتت دواء؛ قالت: نبت دواء لكذا وكذا. فيجعلها كذلك؛ حتي نبتت شجرة يقال لها الخروبة.[5] فسألها: ما اسمك؟ فقالت: أنا الخروبة. فقال: ولأي شيء نبت؟ فقالت:

==

1: ابن الأثير- 181/1

2: خرجه الترمذي في جامعه عن أبي هريرة وصححه الألباني- 108/4

3: خرجه السيوطي عن أبي هريرة وصححه الألباني

4: ابن كثير- 348/2

5: وعند ابن الأثير: خرنوبة- 186/1

نبت لخراب هذا المسجد. قال سليمان: ما كان الله ليخربه وأنا حي، أنت التي على وجهك هلاكي وخراب بيت المقدس. فنزعها وغرسها في حائط له، ثم دخل المحراب، فقام يصلي متكئا على عصاه، فمات؛ ولم تعلم به الشياطين، وهم في ذلك يعملون له، يخافون أن يخرج فيعاقبهم، وكانت الشياطين تجتمع حول المحراب، وكان المحراب له كوى بين يديه وخلفه، فكان الشيطان الذي يريد أن يخلع؛ يقول: ألست جليدا(قويا) إن دخلت فخرجت من ذلك الجانب؟ فيدخل حتى يخرج من الجانب الآخر، فدخل شيطان من أولئك فمر -ولم يكن شيطان ينظر إلى سليمان عليه السلام وهو في المحراب إلا احترق؛ ولم يسمع صوت سليمان، ثم رجع فلم يسمع، ثم رجع فوقع في البيت ولم يحترق، ونظر إلى سليمان عليه السلام قد سقط ميتا، فخرج فأخبر الناس أن سليمان قد مات، ففتحوا عنه فأخرجوه، ووجدوا منسأته -وهي العصا بلسان الحبشة- قد أكلتها الأرضة، ولم يعلموا منذ كم مات، فوضعوا الأرضة على العصا، فأكلت منها يوما وليلة. ثم حسبوا على ذلك النحو؛ فوجدوه قد مات منذ سنة، وهي قراءة ابن مسعود: فمكثوا يدأبون له من بعد موته حولا كاملا. فأيقن الناس عند ذلك أن الجن كانوا يكذبون، ولو أنهم علموا الغيب لعلموا بموت سليمان، ولم يلبثوا في العذاب سنة يعملون له.[1] وذلك قوله تعالى: ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المعين.
قيل: إن سليمان عاش اثنين وخمسين سنة، وكان ملكه أربعين سنة. **وقيل:** ملكه كان عشرين سنة.[2] وقد ملك بعده ابنه رُحُبعام؛ مدة سبع عشرة سنة؛ ثم تفرقت من بعده مملكة بني إسرائيل.

دفاعا عن نبي الله سليمان:

الاتهام: قد يكون نبي الله سليمان من أكثر الأنبياء إحاطة بالغموض؛ وقد يكون أكثر الناس قد دلس عليه خرافات وأكاذيب وشائعات؛ مثلا قد ذكروا قول الله عز وجل عن سليمان عليه السلام: {وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَاب}**ص34.**
الدفاع: لا حجة لهم في هذا إذ معنى قوله تعالى: فتنا سليمان. أي: أتيناه من الملك العظيم ما اختبرنا به طاعته، كما قال تعالى؛ مصدقا لموسى عليه السلام في قوله تعالى: {إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ

===

1: ابن كثير- 2/344-345

2: ابن كثير- 2/355-356

تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاء وَتَهْدِي مَن تَشَاء} **الأعراف155**. فإن من الفتنة من يهدي الله بها من يشاء. **وقال تعالى:** {أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُون} **العنكبوت2**. فهذه الفتنة هي الإختبار حتى يظهر المهتدي من الضال؛ وعليه فإن فتنة الله تعالى لسليمان إنما هي اختباره حتى ظهر فضله فقط؛ وما عدا هذا فخرافات ولدها زنادقة اليهود وأشباههم.. وأما الجسد الملقى على كرسيه فلم يأت لنا صحيح من قرآن أو سنة يفسر لنا هذا الجسد؛ فإذا لم يأت بتفسيره ما هو نص ولا خبر صحيح فلا يحل لأحد القول بالظن الذي هو أكذب الحديث في ذلك فيكون كاذبا على الله عز وجل.. إلا أننا لا نشك البتة في بطلان قول من قال: أنه كان جنيا تصور بصورته بل نقطع على أنه كذب والله تعالى لا يهتك ستر رسوله صلى الله عليه وسلم هذا الهتك. وهذه كلها خرافات موضوعة مكذوبة لم يصح اسنادها قط. وذكروا أيضا طعنا في سليمان؛ قول الله عز وجل عن سليمان عليه السلام: {فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ. رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاق}**ص32-33. قالوا:** أن سيمان اشتغل بالخيل عن الصلاة حتى فاته وقتها؛ فأخذ يقتل الخيل! **قال ابن حزم:** وهذه خرافة موضوعة مكذوبة سخيفة باردة قد جمعت أفانين من القول، والظاهر أنها من اختراع زنديق بلا شك؛ لأن فيها معاقبة خيل لا ذنب لها والتمثيل بها وإتلاف مال منتفع به بلا معنى ونسبة تضييع الصلاة إلى نبي مرسل ثم يعاقب الخيل على ذنبه لا على ذنبها وهذا أمر لا يستجيزه صبي ابن سبع سنين فكيف بنبي مرسل؟ ومعنى هذه الآية ظاهر بين وهو: أنه عليه السلام أخبر أنه أحب حب الخيل من أجل ذكر ربه؛ حتى توارت الشمس بالحجاب أو حتى توارت تلك الصافنات الجياد بحجابها؛ ثم أمر بردها فطفق مسحا بسوقها وأعناقها بيده برا بها وإكراما لها. هذا هو ظاهر الآية الذي لا يحتمل غيره وليس فيها إشارة أصلا إلى ما ذكروه من قتل الخيل وتعطيل الصلاة وكل هذا قد قال ثقات المسلمين فكيف ولا حجة في قول أحد دون رسول الله صلى الله عليه وسلم. وذكروا أيضاً الحديث الثابت من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: أن سليمان عليه السلام قال: لأطوفن الليلة على كذا وكذا امرأة كل امرأة منهن تلد فارسا يقاتل في سبيل الله ولم يقل إن شاء الله. وهذا ما لا حجة لهم فيه فإن من قصد تكثير المؤمنين المجاهدين في سبيل الله عز وجل فقد أحسن ولا يجوز أن يظن به أنه يجهل أن ذلك لا يكون إلا أن يشاء الله عز وجل. وقد جاء في نص الحديث المذكور أنه إنما ترك إن شاء الله نسيانا فأوخذ بالنسيان في ذلك وقد قصد الخير، وهذا نص قولنا.[1]

==

1: الفصل في الملل والأهواء والنحل- 316-317/2

أهل الكهف

ذكر الله تعالى لنا من قصة أهل الكهف في كتابه الكريم في سورة واحدة من سور القرآن؛ وهي سورة الكهف من الأية 9 إلى الآية 26. وكان سبب نزول تلك الآيات ما سبق وقلناه أن يهود كانوا كثيرا مايذهبون إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم ليمتحنوه ولعلهم يحرجونه أمام قومه؛ فيسألونه أسئلة لا يعرفها إلا من أوتى علم الكتاب؛ فقد قالت اليهود لقريش؛ سلوه عن أقوام ذهبوا في الدهر فلا يدري ما صنعوا، وعن رجل طوّاف في الأرض وعن الروح. فأنزل الله تعالى: {ويسئلونك عن الروح} **الإسراء85**.{ويسئلونك عن ذي القرنين}؛وقال ههنا: {أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آيتنا عجبا} أي: ليسوا بعجب عظيم بالنسبة إلي ما أطلعناك عليه من الأخبار العظيمة، والآيات الباهرة. والكهف: هو الغار في الجبل. وأما الرقيم؛ **فعن ابن عباس قال:** لا أدري ما المراد به. **وقيل:** هو الكتاب المرقوم فيه أسماؤهم وما جرى لهم، كتب من بعدهم. **وقيل:** هو اسم الجبل الذي فيه كهفهم.. **وقيل:** اسم قرية هنالك والله أعلم.[1] **وقيل:** الرقيم خبرهم مكتوب في لوح وجعل على باب الكهف الذي أووا إليه، **وقيل:** كتبه بعض أهل زمانهم وجعله في البناء، وفيه أسماؤهم، وفي أيام من كانوا وسبب وصولهم إلي الكهف. **وقيل:** كتبه الملك الذي ظهر عليهم، وبنى الكنيسة عليهم.[2] والمعروف عن هؤلاء أنهم كانوا في قوم يعبدون الأصنام ويسجدون لها ويعظمونها، وقد هداهم الله إلى الإيمان والحق؛ فنبذوا قومهم وما يعبدون؛ فخرجوا عن دينهم. وقرروا أن يعتزلوهم وما يعبدون من دون الله الواحد القهار. **قال ابن الأثير:** كان أصحاب الكهف أيام ملك اسمه دقيوس، ويقال: دقيانوس، وكانوا بمدينة للروم اسمها أفسوس، وملكهم يعبد الأصنام.[3] **وجاء في الطبري:** كانت الفتية على دين عيسى بن مريم على الإسلام؛ وكان ملكهم كافرا. وكان بعضهم يزعم أن أمرهم ومصيرهم إلى الكهف كان قبل المسيح، وأن المسيح أخبر قومه خبرهم؛ فإن الله عز وجل ابتعثهم من رقدتهم بعدما رفع المسيح؛ في الفترة بينه وبين محمد صلى الله عليه وسلم. والله أعلم أي ذلك كان. فأما الذي عليه علماء أهل الإسلام فعلى أن أمرهم كان بعد المسيح.[4] وقال قائلهم فلنذهب إلى كهف يعرفونه في جبل:

==

1: ابن كثير- 563/2

2: ابن الأثير- 274/1

3: ابن الأثير- 274/1

4: الطبري- 212/1

فأؤوا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيء لكم من أمركم مرفقا. **أي:** يُسبل عليكم ستره، وتكونوا تحت حفظه وكنفه، ويجعل عاقبة أمركم إلى خير. ثم ذكر الله تعالى صفة هذا الكهف الذي آووا إليه؛ وأن بابه موجه إلى نحو الشمال، وأعماقه إلى جهة القبلة، وأن ضوء الشمس يدخله حتى لا يفسد هواؤه، ووضرب على آذنهم وناموا دهرا طويلا من السنين، لا يأكلون ولا يشربون فلا تتغذى أجسادهم طوال تلك الفترة: وهم في فجوة منه ذلك من آيات الله. **قال تعالى:** وتحسبهم أيقاظا وهم رقود. **قال بعضهم:** لأن أعينهم مفتوحة؛ لئلا تفسد بطول الغمض. **وقيل:** ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال. وهذا للحفاظ على حياتهم وعلى وظائف أعضاؤهم الحيوية. **وقال تعالى:** وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد. **قال ابن كثير:** المراد أن كلبهم الذي كان معهم، وصحبهم حال إنفرادهم من قومهم، لزمهم ولم يدخل معهم في الكهف، بل ربض على بابه ووضع يديه على الوصيد، وهذا من جملة أدبه، ومن جملة ما أُكرموا به، فإن الملائكة لا تدخل بيتا فيه كلب.[1] ثم ذكر الله تعالى أنه بعثهم من رقدتهم بعد نومهم بثلاثمائة سنة وتسع سنين. فكل مائة سنة شمسية يقابلها مائة وثلاثة سنين قمرية.

فلما استيقظوا؛ قال بعضهم لبعض: كم لبثتم قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم. قالوا ربكم أعلم بما لبثتم فابعثوا بورقكم هذه إلى المدينة.. لم يعلم الشباب كم لبثوا في نومهم راقدين؟ فقال بعضهم لربما نمنا يوما أو بعض يوم؛ على أية حال فليذهب أحدكم إلى المدينة بتلك الدراهم فليشتري لنا بعضا من أشهى الأطعمة ولكن في هدوء وحذر حتى لا ينتبه له أحد. وإلا فالقوم سيرغموننا أن ندخل في دينهم. **قيل:** لما خرج أحدهم متنكرا إلى المدينة لئلا يعرفه أحد من قومه فيما يحسبه؛ فاستغربوا شكله وصفته ونقوده. فيقال: أنهم حمله إلى متوليهم، وخافوا من أمره أن يكون جاسوسا؛ فيقال: أنه هرب منهم. ويقال: بل أخبرهم خبره ومن معه، وما كان من أمرهم، فانطلقوا معه ليريهم مكانهم، فلما قربوا من الكهف، دخل إلى إخوانه، فأخبرهم حقيقة أمرهم، ومقدار ما رقدوا، فعلموا أن هذا من قدرة الله. فيقال: إنهم استمروا راقدين. ويقال: بل ماتوا بعد ذلك.[2] وأما أهل البلدة؛ فيقال: إنهم لم يهتدوا إلى موضعهم من الغار، وعمى الله عليهم أمرهم. ويقال: لم يستطيعوا دخوله حسا. ويقال: مهابة لهم. واختلفوا في أمرهم؛ فقائلون يقولون: ابنوا عليهم بنيانا. أي: سدوا عليهم باب الكهف؛ لئلا يخرجوا أو لئلا يصل إليهم ما يؤذيهم. وآخرون وهم

==

1: ابن كثير- 566/2

2: ابن كثير- 568/2

الأكثرية؛ قالوا: لنتخذن عليهم مسجدا. أي: معبدا يكون مباركا لمجاورته هؤلاء الصالحين. وقد كان هذا سائغا في شريعتهم؛ أما في شرعنا فهذا أمرا منكر ومحرم فعله. **وأما قوله تعالى:** وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها. **فمعناها:** أطلعنا الناس علي أمرهم ليعلموا أن المعاد حق وأن الساعة لا ريب فيها، إذ علموا أن هؤلاء القوم رقدوا أزيد من ثلاثمائة سنة ثم قاموا كما كانوا من غير تغيّر منهم، فإن من أبقاهم كما هم قادر على إعادة الأبدان.

وقد اختلف العلماء والمؤرخين في تحديد مكان هذا الكهف؛ فقال كثيرون: هو بأرض أيلة. وقيل: بأرض نينوى. وقيل: بالبلقاء. وقيل: ببلاد الروم.[1]

==

1: ابن كثير- 566/2

زكريا ويحيى

هو نبي الله زكريا بن حنا. **ويقال:** زكريا بن دان. **ويقال:** زكريا بن أدن بن مسلم بن صدوق بن محمان بن داود بن سليمان بن مسلم بن صديقة بن برحية بن ملقاطية بن ناحور بن سلوم بن بهفانيا بن حاش بن أني بن خثعم بن سليمان بن داود. أبو يحيى النبي عليه السلام من بني إسرائيل.[1] **وجاء في الطبري:** كان زكريا بن برخيا أبو يحيى بن زكريا وعمران بن ماثان أبو مريم متزوجين بأختين، إحداهما عند زكريا وهي أم يحيى، والأخرى منهما عند عمران بن ماثان؛ وهي أم مريم. فمات عمران بن ماثان وأم مريم حامل بمريم، فملا ولدت مريم كفلها زكريا بعد موت أمها؛ لأن خالتها أخت أمها كانت عنده.[2]

كان زكريا عجوزا لم ينجب حتى بلغ من الكبر عتيا؛ وامرأته كانت عاقرا وقد أسنت أيضا؛ وقد استحوذ الضعف على زكريا؛ فقال: إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا. **أي:** ضعفت وكبرت وابيض شعر رأسي. **قيل:** كان عمره إذ ذاك سبعا وسبعين سنة.[3] **وقيل:** كان عمره اثنين وتسعين سنة، **وقيل:** مائة وعشرين سنة. وكانت امرأته ابنة ثمان وتسعين سنة.[4] وكما قلنا فقد كفل زكريا مريم بنت عمران، وكان كلما دخل عليها محرابها وجد عندها فاكهة في غير أوانها ولا في أوانها، وهذه من كرامات الأولياء، فعلم زكريا أن الرازق للشيء في غير أوانه وبلا حساب؛ هو قادر على أن يرزقه ولدا وإن كان قد طعن في سنه: {هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء} فسأل الله تعالى أن يرزقه ولد من صلبه، يكون برا تقيا مرضيا؛ ولهذا قال: {فهب لي من لدنك} **أي:** من عندك بحولك وقوتك. وكان زكريا نجارا يعمل بيده ويأكل من كسبه. فبشره الله تعالى بالبشرة السعيدة التي كان ينتظرها: {يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا} وقال تعالى: {فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه} **الأنبياء90.** وقال تعالى للوليد يحيى: {يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا} فالله تعالى علمه الكتاب والحكمة وهو صغير في حال صباه. **قال عبد الله بن المبارك:** قال معمر: قال الصبيان ليحيى بن

==

1: ابن كثير- 394/2

2: الطبري- 195/1

3: ابن كثير- 399/2

4: ابن الأثير- 229/1

زكريا: اذهب بنا نلعب. فقال: ما للعب خلقنا.[1] **وقيل:** نبئ صغيرا؛ فكان يدعو الناس إلى عبادة الله، ولبس الشعر، فلم يكن له دينار ولا درهم ولا مسكن يسكن إليه أينما جنّهُ الليل أقام، ولم يكن له عبد ولا أمة واجتهد في العبادة، فنظر يوما إلى بدنه وقد نحل فبكى، فأوحى الله إليه: يا يحيى أتبكي لما نحل من جسمك! وعزتي وجلالي لو اطلعت في النار اطلاعة لتدرعت الحديد عوض الشعر. فبكى حتى أكلت الدموع لحم خديه، وبدت أضراسه للناظرين.[2] **وقيل:** أن يحيى عليه السلام كان كثير الإنفراد من الناس، إنما كان يأنس إلى البراري، ويأكل من ورق الأشجار، ويرد ماء الأنهار، ويتغذى بالجراد في بعض الأحيان؛ ويقول: من أنعم منك يا يحيى.[3] **وروي ابن عساكر:** أن أبويه خرجا في تطلبه، فوجداه عند بحيرة الأردن، فلما اجتمعا به، أبكاهما بكاءا شديدا؛ لما هو فيه من العبادة والخوف من الله عز وجل.[4] **قال تعالى:** وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين. **والحصور:** هو الذي لا يأتي النساء. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما من أحد من ولد آدم قد أخطأ أو هم بخطيئة ليس يحيى بن زكريا.[5] **وعن خيثمة؛ قال:** كان عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا ابني خالة، وكان عيسى يلبس الصوف، وكان يحيى يلبس الوبر، ولم يكن لواحد منهما دينار ولا درهم، ولا عبد ولا أمة، ولا ما يأويان إليه، أينما جنّهما الليل أويا، فلما أرادا أن يتفرقا؛ قال له يحيى: أوصني. قال: لا تغضب. قال: لا أستطيع إلا أن أغضب. قال: فلا تقتن مالا. قال: أما هذه فعسى.[6] **وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:** إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات، أن يعمل بهن، وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن، وكان أن يبطئ؛ فقال له عيسى عليه السلام: إنك قد أمرت بخمس كلمات، أن تعمل بهن وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن؛ فإما أن تبلغهن وإما أن أبلغهن؛ فقال: يا أخي؛ إني أخشى إن سبقتني أن أعذب أو يخسف بي. قال: فجمع يحيى بني إسرائيل في بيت المقدس حتى امتلأ المسجد فقعد على الشرفات؛ فحمد الله وأثنى عليه؛ ثم قال: إن الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن: وأولهن أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا؛ فإن مثل من أشرك بالله كمثل رجل اشترى عبدا من خالص ماله بذهب أو ورق

==

1: ابن كثير- 400/2

2: ابن الأثير- 230/1

3: ابن كثير- 409/2

4: تاريخ دمشق- 54/18

5: خرجه الألباني الصحيحة عن ابن عباس

6: ابن كثير- 405/2

ثم أسكنه دارا؛ فقال اعمل وارفع إلى فجعل العبد يعمل ويرفع إلى غير سيده؛ فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك؟ وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأمركم بالصلاة؛ وإذا قمتم إلى الصلاة فلا تلتفتوا؛ فإن الله عز وجل يقبل بوجهه على عبده ما لم يلتفت. وأمركم بالصيام ومثل ذلك؛ كمثل رجل معه صرة مسك في عصابة كلهم يجد ريح المسك؛ وإن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك. وأمركم بالصدقة؛ ومثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فشدوا يديه إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه؛ فقال لهم: هل لكم أن أفتدي نفسي منكم فجعل يفتدي نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فك نفسه. وأمركم بذكر الله كثيرا؛ ومثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعا في أثره؛ فأتى حصنا حصينا فأحرز نفسه فيه؛ وإن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله تعالى.[1]

مقتل زكريا:

لما قتل يحيى وسمع أبوه بقتله فر هاربا فدخل بستانا عند بيت المقدس فيه أشجار، فأرسل الملك في طلبه؛ فمر زكريا بالشجرة؛ فنادته هلم إليّ يا نبي الله؛ فلما أتاها أنشفت فدخلها فانطبقت عليه وبقى في وسطها، فأتى عدو الله إبليس فأخذ هدب ردائه فأخرجه من الشجرة ليصدقوه إذا أخبرهم، ثم لقى الطلب فأخبرهم، فقال لهم: ما تريدون؟ فقالوا: نلتمس زكريا. فقال: إنه سحر هذه الشجرة فانشقت له فدخلها. قالوا: لا نصدقك. قال: فإن لي علامة تصدقوني بها؛ فأراهم طرف ردائه، فأخذوا الفؤوس وقطعوا الشجرة اثنتين وشقوها بالمنشار فمات زكريا فيها.[2] **وعن وهب بن منبه:** هرب من قومه، فدخل شجرة فجاءوا فوضعوا المنشار عليها، فلما وصل المنشار إلى أضلاعه أنّ، فأوحى الله إليه: لئن لم يسكن أنينك، لأقلبن الأرض ومن عليها. فسكن أنينه حتى قطع باثنتين.[3]

==

1: خرجه السيوطي عن الحارث الأشعري وصححه الألباني

2: ابن الأثير- 235/1

3: ابن كثير- 406/2

مقتل يحيى:

جاء في سبب مقتله أن بعض ملوك ذلك الزمان بدمشق؛ كان يريد أن يتزوج ببعض محارمه، أو من لا يحل له تزويجها، فنهاه يحيى عليه السلام عن ذلك، وإنما نهاه لأن الله قد بعث عيسى رسولا نسخ بعض أحكام التوراة. فكان مما نسخ أنه حرم نكاح بنت الأخ. وكان لملكهم واسمه هيرودس بنت أخ تعجبه يريد أن يتزوجها فنهاه يحيى عنها.(1) **وقيل:** إن ملك بني إسرائيل كان يكرم يحيى بن زكريا، ويدني مجلسه، ويستشيره في أمره ولا يقطع أمرا دونه، وإنه هوى أن يتزوج ابنة امرأة له، فسأل يحيى عن ذلك فنهاه عن نكاحها.(2) فبقي في نفسها منه. فلما كان بينها وبين الملك ما يحب منها؛ استوهبت منه دم يحيى، فوهبه لها، فبعثت إليه من قتله، وجاء برأسه ودمه في طست إلى عندها. فيقال: إنها هلكت من فورها وساعتها. وقيل: بل أحبته امراة ذلك الملك وراسلته، فأبى عليها، فلما يئست منه تحيلت في أن استوهبته من الملك، فتمنع عليها الملك، ثم أجابها إلى ذلك، فبعثت من قتله وأحضر إليها رأسه ودمه في طست.(3)

وروي: أن يحيى؛ لما قتل بذرت قطرة من دمه على الأرض فلم تزل تغلي حتى بعث الله بتختصر عليهم فجاءته امرأة فدلته على ذلك الدم، فألقى الله في قلبه أن يقتل منهم على ذلك الدم حتى يسكن، فقتل منهم سبعين ألفا حتى سكن الدم.(4) وهذا تخريف فبختنصر كان في سنة 606 قبل ميلاد المسيح؛ ويحيى ولد في أول عام لميلاد المسيح؟ **قال ابن الأثير:** وهذا القول وما لم نذكره من الروايات من أن بختنصر هو الذي خرب بيت المقدس، وقتل بني إسرائيل عند قتلهم يحيى بن زكريا باطل عند أهل السير والتاريخ وأهل العلم.(5)

==

1: ابن الأثير- 230/1

2: الطبري- 196/1

3: ابن كثير- 411/2

4: ابن الأثير- 231/1

5: ابن الأثير- 232/1

مريم والمسيح

قال تعالى: {إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين}**آل عمران 33.** وعمران هذا هو والد مريم عليهما السلام؛ وهو: عمران بن باشم بن أمون بن منشا بن حزقيا بن أحزيق بن موثم بن عزاريا بن أمصيا بن ياوس بن أحزيهو بن يارم بن يهفاشاط بن أيش بن رحبعام بن سليمان بن داود.. وكان أبوها عمران صاحب صلاة بني إسرائيل في زمانه؛ وكانت أمها وهي حنة بنت فاقود بن قبيل؛ من العابدات؛ وكان زكريا نبي ذلك الزمان.[1] **وقيل:** عمران بن ماثان من ولد سليمان بن داود؛ وكان آل ماثان رؤوس بني إسرائيل وأحبارهم وكان متزوجا بحنة بنت فاقوذ، وكان زكريا بن برخيا متزوجا بأختها إيشاع.[2]

وقيل: أن أم مريم كانت لا تحبل، فرأت يوما طائرا يزقُّ فرخا له(أي يطعمه)، فاشتهت الولد؛ فنذرت لله إن حملت لتجعلن ولدها محررا، **أي:** حبيسا في خدمة بيت المقدس. **قالوا:** فحاضت من فورها، فلما طهرت واقعها بعلها فحملت بمريم عليها السلام: فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت. وليس الذكر كالأنثى.[3]

وقيل: كان النذر المحرر عندهم أن يجعل للكنيسة يقوم بخدمتها ولا يبرح منها حتى يبلغ الحلم؛ فإذا بلغ خُيّر فإن أحب أن يقيم فيها أقام وإن أحب أن يذهب ذهب حيث شاء، ولم يكن يُحرر إلا الغلمان لأن الإناث لا يصلحن لذلك لما يصيبهن من الحيض والأذى؛ ثم هلك عمران وحنة حامل بمريم.[4]

قالت أم مريم: وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم. ولقد استجيب لها ربنا عز وجل في هذا؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان فيستهل صارخا من نخسة الشيطان إلا ابن مريم وأمه.[5] **ومعنى اسم مريم بلغتهم:** العابدة.[6] **قيل:** أن أمها حين وضعتها لفتها في خروقها، ثم خرجت بها إلى المسجد، فسلمتها إلى العباد الذين هم مقيمون به،

==

1: ابن كثير- 2/417-418

2: ابن الأثير- 1/228

3: ابن كثير- 2/419

4: ابن الأثير- 1/228

5: خرجه السيوطي عن أبي هريرة وصححه الألباني

6: ابن الأثير- 1/228

وكانت ابنة إمامهم وصاحب صلاتهم فتنازعوا فيها.. وكان زكريا نبيهم وقتئذ وخالها في نفس ذات الوقت؛ فأراد أن يكفلها فنازعوه فيها وطلبوا أن يقترع معهم، فخرجت قرعته غالبة لهم. **وهذا قوله تعالى:** {وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون} **أل عمران 44.** ونشأت الفتاة مريم المباركة في المسجد؛ تتعبد لربها في محرابها؛ في مكان لا يدخله سواها، وتقوم بالعبادة ليلها ونهارها حتى صارت يضرب المثل بعبادتها في بني إسرائيل. حتى إنه كان نبي الله زكريا كلما دخل عليها موضع عبادتها، يجد عندها رزقا غريبا في غير اوانه؛ فكان يجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء؛ وفاكهة الشتاء في الصيف: فيسألها زكريا: يا مريم أنى لك هذا؟ قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب. فعند ذلك طمع زكريا في رحمة وعطاء ربه فدعاه أن يرزقه ولدا من صلبه. قال زكريا: يا من يرزق مريم الثمر في غير أوانه؛ هب لي ولدا وإن كان في غير أوانه.[1]

ومريم قال الله فيها: {واصطفاك علي نساء العالمين} وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها: كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم ابنة عمران، وآسيا امرأة فرعون، وفضل عائشة علي النساء كفضل الثريد على سائر الطعام.[2] **وقال صلى الله عليه وسلم:** خير نسائها مريم بنت عمران، وخير نسائها خديجة بنت خويلد.[3] **وقال تعالى:** {ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة}

الملائكة تبشر مريم بولد دون والد:

{إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسي ابن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين. ويكلم الناس في المهد وكهلا ومن الصالحين. قالت رب أني يكون لي ولد ولم يمسسني بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضي الله أمرا فإنما يقول له كن فيكون} **آل عمران45-47.** فقد تعجبت مريم من فكرة الولد من غير والد؛ لأنه لا زوج لها، ولا هي ممن يتزوج؛ فأخبرتها الملائكة بأن الله قادر على ما يشاء؛ فاستكانت لذلك وأنابت وسلمت أمرها لله؛ وكانت تخرج من المسجد في زمن حيضها أو لحاجة ضرورية ملحة؛ ولهذا انتبذت؛ أي: انفردت وحدها

==

1: ابن كثير- 432/2

2: خرجه الترمذي في جامعة عن أبي موسى وصححه الألباني- 275/2

3: خرجه السيوطي عن علي وصححه الألباني

شرقي المسجد الأقصي، إذ بعث الله إليها الروح الأمين، جبريل؛ فتمثل لها بشرا سويا. فلما رأته: قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا. فقال لها الملك: إنما أنا رسول ربك. أي: لست ببشر، ولكني ملك بعثني الله إليك: لأهب لك غلاما زكيا. أي: ولدا زكيا. قالت أني يكون لي غلام. أي: كيف يكون لي غلام، أو يوجد لي ولد: ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا. أي: ولست ذات زوج ما أنا ممن يفعل الفاحشة. قال كذلك قال ربك هو عليّ هين. أي: وعد الله أنه سيخلق منك غلاما وليس له والد؛ لأن هذا سهل يسير على الله. فكما خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى، وخلق حواء من ذكر ولا أنثى؛ سيخلق عيسى من أنثى بلا ذكر، وخلق سبحانه كل المخلوقات من ذكر وأنثى.

فذكر غير واحد من السلف: أن جبريل نفخ في جيب درعها، فنزلت النفخة إلى فرجها فحملت من فورها، كما تحمل المرأة عند جماع بعلها.[1] فلما حملت ضاقت بجنينها ذرعا، وعلمت أن كثيرا من الناس سيتهمونها.

مدة حمل مريم:

الظاهر أنها حملت به تسعة أشهر؛ كما تحمل النساء إذ لو كان خلاف ذلك لذكر. وعن ابن عباس وعكرمة: أنها حملت به ثمانية أشهر. وعن ابن عباس: ما هو إلا أن حملت به فوضعته. قال بعضهم: حملت به تسع ساعات.[2]

وشاع الأمر في بني إسرائيل؛ الفتاة العابدة الزاهدة سليلة الصالحين والأنبياء حامل لا نعلم لها زوج! واتهمها البعض بيوسف النجار الذي كان يتعبد معها في المسجد؛ وتوارت عنهم مريم واعتزلتهم وانتبذت مكانا قصيا.

مريم تضع حملها:

كانت مريم منفردة وحيدة بعيدة عن كل الناس؛ **قال تعالى:** وفجأءها المخاض إلى جذع النخلة. **أي:** ألجأها الطلق إلى جذع النخلة، فنادت مريم قائلة: يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا. فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سريا. **وقيل هنا قولان: الأول:** أنه جبريل؛ قال ابن عباس: ولم يتكلم عيسي إلا بحضرة القوم..**الثاني:** أنه ابنها عيسي. **والسريا:** قيل النهر. واختار

==

1: ابن كثير- 441/2

2: ابن كثير- 443/2

ابن كثير أنه جبريل؛ **فقال:** والصحيح الأول؛ لقوله: وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا. فذكر الطعام والشراب؛ ولهذا قال: فكلي واشربي وقري عينا.[1] **قيل:** كان جذع النخلة يابسا. **وقيل:** كانت نخلة مثمرة. فالله أعلم. ويحتمل أنها كانت نخلة، لكنها لم تكن مثمرة إذ ذاك؛ لأن ميلاده عليه السلام كان في زمن الشتاء، وليس ذاك وقت ثمر. **وقيل:** أفضل شيء للمرأة النفساء التمر والرطب. **وروي:** وهزي إليك بجذع النخلة. وكان جذعا منها مقطوعا فهزته؛ فإذا هو نخلة، وأجري لها في المحراب نهرا فتساقطت النخلة رطبا جنيا.[2]

والأصح أنها كانت جذعا مقطوعة بلا ثمر، فلما هزت مريم الجزع؛ أراها الله المعجزة؛ بأن دب الحياة في النخلة الميتة أو الجذع المقطوع؛ وخرج منه الثمر؛ فأراها الله كيف أنه كيف يخرج الحي من الميت؛ وأنه على كل شئ قدير؛ تماما كما تسبب في حملها بلا رجل.

وقد اختلف في مدة حملها، فقيل: تسعة أشهر؛ وهو قول النصارى. وقيل: ثمانية أشهر؛ فكان ذلك آية أخرى لأنه لم يعش مولود لثمانية أشهر غيره، وقيل: ستة أشهر، وقيل: ثلاث ساعات، وقيل: ساعة واحدة.[3]

قال تعالى بعد ما تمت ولادة عيسى: فإما ترين من البشر أحدا فقولي إني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا. وهذا من تمام كلام الذي ناداها من تحتها. فقولي؛ أي: بلسان الحال والإشارة. إني نذرت للرحمن صوما؛ أي: صمتا.

قيل: أن مريم حملت طلفلها المبارك وذهبت بها إلى قومها تحمله؛ فلما واجهوها وجدوا معها ولدها؛ فقالوا: يا مريم لقد جئت شيئا فريا. أي: أمرا عظيما منكرا. **قال ابن عباس:** وذلك بعد ما تعالت (برأت وطهرت) من نفاسها بعد أربعين يوما.[4]

ثم قال لها قومها: يا أخت هارون ماكان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا. يشبهونها بنبي الله هارون أخا موسى؛ شبهوها به في العبادة. يقولون: لست من أهل بيت هذا شيمتهم ولا سجيتهم؛ فاتهموها بالفاحشة. قال تعالى: وبكفرهم وقولهم علي مريم بهتانا عظيما.**النساء156.** وهنا وهنا فقط نطق الوحيد الذي يملك دليل برائتها وطهرها ونقائها؛ أي ابنها التي اتُهمت به؛ **قال تعالى:** فأشارت إليه. **أي:** خاطبوه وكلموه. فقالوا: كيف نكلم من كان في المهد صبيا. واعتبروا أنها تسخر

==

1: ابن كثير- 445/2

2: الطبري- 201/1

3: ابن الأثير- 238/1

4: ابن كثير- 447/2

منهم؛ وعندها نطق الصبي المعجز: قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا. وجعلني مبارك أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا.

هذا أول ما تفوّه به عيسى بن مريم. وفيه البراءة الكاملة والتنزيه المطلق لأمه الطاهرة العفيفة.

قال ابن عباس: إن عيسى بن مريم أمسك عن الكلام بعد إذ كلمهم طفلا، حتى بلغ ما يبلغ الغلمان، ثم أنطقه الله بعد ذلك بالحكمة والبيان.[1] هذا هو عيسى ابن مريم؛ معجزة في حمله ونطقه رضيعا في مهده؛ فلما لم تعجبوا أن الله تعالى خلق آدم من تراب وشكله من طين ونفخ فيه من روحه فصار بشرا سويا؛ وهذا عيسى خلقه الله في بطن أمه دون ذكر معجزة وآية؛ أو كما قال الله تعالى: إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون.**آل عمران59.**

فاختلف الناس في أمر مريم منذ هذا الزمن إلى زماننا هذا؛ **قال تعالى:** فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم. فمنهم اليهود الذي أصروا على الكفر فقالوا: إنه ولد زنية. واستمروا على كفرهم. وقابلهم آخرون في الكفر؛ فقالوا: هو الله. وقال آخرون: هو ابن الله. وقال المؤمنون: هو عبد الله ورسوله، وابن أمته، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه. **قال الله تعالى:** تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا. أن دعوا للرحمن ولدا. وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا. إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا.**90-93مريم. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:** من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ وأن محمدا عبده ورسوله؛ وأن عيسى عبده ورسوله وابن أمته وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنة حق، وأن النار حق، وأن البعث حق؛ أدخله الله الجنة على ما كان من عمل من أي أبواب الجنة الثمانية شاء.[2] **جاء في الطبري:** وذكروا -النصارى- أن مريم حملت بعيسى ولها ثلاث عشرة سنة، وأن عيسى عاش إلى أن رفع اثنتين وثلاثين سنة وأياما، وأن مريم بقيت بعد رفعه ست سنين، وكان جميع عمرها نيفا وخمسين سنة.[3]

==

1: ابن كثير- 468/2-469

2: خرجه السيوطي عن عبادة بن الصامت وصححه الألباني

3: الطبري- 195/1

عيسى بن مريم:

كانت ولادة المسيح بعد مولد يحيى بستة أشهر؛ وأن مريم عليها السلام حملت بعيسى ولها ثلاثة عشرة سنة؛ **وقيل:** خمس عشرة؛ **وقيل:** عشرين، وأن عيسي عاش إلى أن رفع اثنتين وثلاثين سنة وأياما، وأن مريم عاشت بعده ست سنين؛ فكان جميع عمرها إحدى وخمسين سنة، وأن يحيى قتل قبل أن يرفع المسيح وأتت المسيح النبوة والرسالة وعمره ثلاثون سنة.(1)

ولد في بيت لحم قريبا من بيت المقدس. **قيل:** سمي المسيح؛ لمسحه الأرض، وهو سياحته فيها، وفراره بدينه من الفتن في ذلك الزمان؛ لشدة تكذيب اليهود له وافترائهم عليه وعلى أمه عليهما السلام. **وقيل:** لأنه كان ممسوح القدمين.(2)

قالوا: ظهر نجم عظيم في السماء، وأن ملك الفرس أشفق من ظهوره، فسأل الكهنة عن ذلك؛ فقالوا: هذا لمولد عظيم في الأرض. فبعث رسله ومعهم ذهب ومر ولبان هدية إلى عيسى. فلما قدموا الشام سألهم ملكها عما أقدمهم، فذكروا له ذلك. **وقيل:** أن هذا الملك سألهم؛ فما بال الذهب والمر واللبان أهديتموه له من بين الأشياء كلها؟ قالوا: تلك أمثاله؛ فأن الذهب هو سيد المتاع كله، وكذلك هذا النبي هو سيد أهل زمانه، ولأن المرء يجبر به الجرح والكسر، وكذلك هذا النبي يشفي به الله كل سقيم ومريض، ولأن اللبان ينال دخانه السماء ولا ينالها دخان غيره، كذلك هذا النبي يرفعه الله إلى السماء لا يرفع في زمانه أحد غيره.(3) فلما قالوا ذلك لذلك الملك قرر قتله؛ فسأل عن ذلك الوقت؛ فإذا قد ولد فيه عيسى بن مريم ببيت المقدس، واشتهر أمره بسبب كلامه في المهد، فأرسلهم إليه بما معهم، وأرسل معهم من يعرفه له؛ ليتوصل إلى قتله إذا انصرفوا عنه، فلما وصلوا إلى مريم بالهدايا ورجعوا، قيل لها: إن رسل ملك الشام إنما جاءوا ليقتلوا ولدك. فاحتملته، فذهبت به إلى مصر، فأقامت بها حتى بلغ عمره اثنتى عشرة سنة.

وفي مصر ظهرت عليه كرامات ومعجزات في حال صغره؛ فذكر منها: أن الدهقان الذي نزلوا عنده افتقد مالا من داره، وكانت داره لا يسكنها إلا الفقراء والضعفاء والمحاويج، فلم يدر من أخذه، وعز ذلك على مريم عليها السلام، وشق على الناس وعلى رب المنزل، وأعياهم أمرها، فلما رأى

==

1: ابن الأثير - 236/1

2: ابن كثير - 519/2

3: الطبري - 199/1

عيسى عليه السلام ذلك، عمد إلى رجل أعمى وآخر مقعد من جملة من هو منقطع إليه؛ فقال للأعمى: احمل هذا المقعد وانهض به. فقال: إني لا أستطيع ذلك. فقال: بلى، كما فعلت أنت وهو حين أخذتما هذا المال من تلك الكوة من الدار. فلما قال ذلك؛ صدقاه فيما قال وأتيا بالمال، فعظم عيسى في أعين الناس وهو صغير جدا..[1]

قال عبد الله بن عمرو: كان عيسى بن مريم وهو غلام يلعب مع الصبيان؛ فكان يقول لأحدهم: تريد أن أخبرك ما خبأت لك أمك؟ فيقول: نعم. فيقول: خبأت لك كذا وكذا. فيذهب الغلام منهم إلى أمه؛ فيقول لها: أطعميني ما خبأت لي. فتقول: وأي شيء خبأت لك؟ فيقول: كذا وكذا. فتقول له: من أخبرك؟! فيقول: عيسى بن مريم. فقالوا: والله لئن تركتم هؤلاء الصبيان مع ابن مريم ليفسدنهم. فجمعوهم في بيت وأغلقوا عليهم، فخرج عيسى يلتمسهم، فلم يجدهم، فسمع ضوضاءهم في بيت، فسأل عنهم، فقالوا: إنما هؤلاء قردة وخنازير. فقال: اللهم كذلك. فكانوا كذلك.[2]

قال وهب بن منبه: إن عيسى لما بلغ ثلاث عشرة سنة، أمره الله أن يرجع من بلاد مصر إلى بيت إيليا (بيت المقدس). قال: فقدم عليه يوسف ابن خال أمه، فحملهما على حمار حتآ جاء بهما إلى إيليا، وأقام بها حتى أحدث الله له الإنجيل، وعلمه التوراة، وأعطاه إحياء الموتى، وإبراء الأسقام، والعلم بالغيوب مما يدخرون في بيوتهم، وتحدث الناس بقدومه، وفزعوا لما كان يأتي من العجائب، فجعلوا يعجبون منه، فدعاهم إلى الله ففشا فيهم أمره.[3]

وروي: بينما عيسى يلعب مع الصبيان إذ وثب غلام على صبي آخر فضربه على رجله فقتله. فألقاه بين رجلي المسيح متلطخا بالدم؛ فانطلقوا به إلى الحاكم في ذلك البلد؛ فقالوا: قتل صبيا. فسأله الحاكم؛ فقال: ما قتلته. فأرادوا أن يبطشوا به؛ فقال: ائتوني بالصبي حتى أسأله من قتله. فتعجبوا من قوله؛ وأحضروا عنده القتيل؛ فدعا الله؛ فأحياه؛ فقال: من قتلك؟ فقال: قتلني فلان يعني الذي قتله. فقال بنو إسرائيل للقتيل: من هذا؟ قال: هذا عيسى بن مريم. ثم مات الغلام من ساعته.[4]

==

1: ابن كثير- 457-465/2

2: تاريخ دمشق- 39/14

3: ابن كثير- 471/2

4: ابن الأثير- 241/1

وقد كان الكافرون والمنافقون من بني إسرائيل يعجبون منه ويستهزئون به؛ فيقولون: ما أكل فلان البارحة، وما ادخر في بيته؟ فيخبرهم، فيزداد المؤمنون إيمانا، والكافرون والمنافقون شكا وكفرانا، وكان عيسى مع ذلك ليس له منزل يأوي إليه، إنما يسيح في الأرض، فكان أول ما أحيا من الموتى؛ أنه مر ذات يوم على امرأة قاعدة عند قبر وهي تبكي. فقال لها: مالك أيتها المرأة؟ فقالت: ماتت ابنة لي، لم يكن لي ولد غيرها، وإني عاهدت ربي أن لا أبرح من موضعي هذا، حتى أذوق ماذاقت من الموت أو يحييها الله لي فأنظر إليها. فقال لها عيسى: أرأيت إن نظرت إليها أراجعة أنت؟ قالت: نعم. قالوا: فصلى ركعتين، ثم جاء فجلس عند القبر؛ فنادى: يا فلانة، قومي بإذن الرحمن فاخرجي. فتحرك القبر. ثم نادى الثانية، فانصدع القبر بإذن الله، ثم نادى الثالثة؛ فخرجت وهي تنفض رأسها من التراب. فقال لها عيسى: ما بطأ بك عني؟ فقالت: لما جاءتني الصيحة الأولى بعث الله لي ملكا فركب خلقي، ثم جاءتني الصيحة الثانية فرجع إلى روحي، ثم جاءتني الصيحة الثالثة فخفت أنها صيحة القيامة، فشاب رأسي وحاجباي وأشفار عيني؛ من مخافة القيامة. ثم أقبلت على أمها؛ فقالت: يا أمتاه، ما حملك على أن أذوق كرب الموت مرتين؟ يا أمتاه اصبري واحتسبي فلا حاجة لي في الدنيا، يا روح الله وكلمته سل ربي أن يردني إلى الآخرة، وأن يهون على كرب الموت. فدعا ربه فقبضها إليه، واستوت عليها الأرض، فبلغ ذلك اليهود فازدادوا عليه غضبا.[1]

وعاد المسيح إلى الشام:

لما عاد عيسى وأمه إلى الشام نزلوا بقرية يقال لها ناصرة، وبها سميت النصارى، فأقام إلى أن بلغ ثلاثين سنة، فأوحى الله إليه أن يبرز للناس ويدعوهم إلى الله تعالى، ويداوي المرضى والزّمنى والأكمه والأبرص وغيرهم من المرضى ففعل ما أمر به وأحبه الناس وكثر أبتاعه وعلا ذكره.[2]
وقال تعالى: {وإذ قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي إسمه أحمد فما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين} **الصف6.** فعيسى بن مريم هو خاتم أنبياء بني إسرائيل. **قال صلى الله عليه وسلم:** ليس بيني وبينه نبي. يعني عيسى.[3] أقام عليهم نبي الله عيسى الحجج والبراهين؛ فاستمر أكثرهم على الكفر

==

1: ابن كثير- 2/482-483

2: ابن الأثير- 1/241

3: جزء من حديث خرجه أبو داود عن أبي هريرة وصححه الألباني- 4/117

والضلال والعناد؛ فانتدب الله له من بينهم طائفة صالحة فكانوا له أنصارا وأعوانا، وذلك حين هم به بنو إسرائيل ووشوا به إلى بعض ملوك ذلك الزمان فعزموا على قتله وصلبه؛ فأنقذه الله منهم، ورفعه إليه من بين أظهرهم، وألقي شبهه على أحد أصحابه؛ فأخذوه فقتلوه وصلبوه وهم يعتقدونه عيسى.

وروي أن الصحابة سألوا رسول الله صلي الله عليه وسلم أن يخبرهم عن نفسه؛ فقال: أنا دعوة إبراهيم؛ وكان آخر من بشر بي عيسى بن مريم.[1]

ودعوة إبراهيم هي؛ في قوله تعالى: {ربنا وابعث فيهم رسولا منهم}**البقرة 129.** وكان عيسى طيب نقي السريرة صالح النفس؛ فقد قال رسول الله صلي الله عليه وسلم: رأى عيسى بن مريم رجلا يسرق؛ فقال له: أسرقت؟ قال: كلا والذي لا إله إلا هو. فقال عيسى: آمنت بالله وكذبت عيني.[2] فالمسيح لا يصدق أن هناك من يمكن أن يحلف بالله كاذبا؛ وإن كان رأى الرجل يسرق بأم عينيه؛ فلما حلف له الرجل بالله أنه لم يسرق؛ قال: كذبت عيني!

نزول المائدة:

قال تعالى: {إذ قال الحواريون يا عيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين. قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين. قال عيسى بن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين. قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين}**المائدة112-115.**

روي: أن عيسى عليه السلام أمر الحواريين بصيام ثلاثين يوما؛ فلما أتموها سألوا من عيسى إنزال مائدة من السماء عليهم في يوم فطرهم ليأكلوا منها وتطمئن قلوبهم بذلك أن الله قد تقبل صيامهم وأجابهم إلى طلبتهم، وتكون لهم عيدا، فوعظهم عيسى وخاف عليهم أن لا يقوموا بشكرها ولا يؤدوا حق شروطها، فأبو عليه إلا أن يسأل لهم ذلك من ربه عز وجل، فلما لم يقلعوا عن ذلك؛ قام إلى مصلاه ولبس مسحا من شعر، وصف بين قدميه وأطرق رأسه، وأسبل عينيه بالبكاء، وتضرع إلى الله في الدعاء والسؤال، أن يجابوا إلى ما طلبوا، فأنزل الله تعالى المائدة من

==

1: خرجه السيوطي عن عبادة بن الصامت وصححه الألباني

2: خرجه السيوطي عن أبي هريرة وصححه الألباني

السماء، والناس ينظرون إليها تنحدر بين غمامتين، وجعلت تدنو قليلا قليلا، وكلما دنت سأل عيسى عليه السلام ربه عز وجل أن يجعلها رحمة لا نقمة، وأن يجعلها بركة وسلامة، فلم تزل تدنو حتى استقرت بين يدي عيسى عليه السلام وهي مغطاة بمنديل، فقام عيسى يكشف عنها، وهو يقول: بسم الله خير الرازقين. فإذا عليها سبعة من الحيتان (الأسماك) وسبعة أرغفة، ويقال: وخل. ويقال: ورمان وثمر. ولها رائحة عظيمة جدا. قال الله لها: كوني؛ فكانت. ثم أمرهم بالأكل منها؛ فقالوا: لا نأكل حتى تأكل. فقال: إنكم الذين ابتدأتم السؤال لها. فأبوا أن يأكلوا منها ابتداء، فأمر الفقراء والمحاويج والمرضى والزمنى، وكانوا قريبا من ألف وثلثمائة؛ فأكلوا منها فبرأ كل من به عاهة، أو آفة، أو مرض مزمن، فندم الناس على ترك الأكل منها؛ لما رأوا من إصلاح حال أولئك. ثم قيل: إنها كانت تنزل كل يوم مرة؛ فيأكل منها الناس، يأكل آخرهم كما يأكل أولهم؛ حتى قيل: إنها كان يأكل منها نحو سبعة آلاف.. ثم أمر الله عيسى أن يقصرها على الفقراء أو المحاويج دون الأغنياء، فشق ذلك على كثير من الناس، وتكلم منافقوهم في ذلك؛ فرفعت بالكلية، ومسخ الذين تكلموا في ذلك خنازير.[1]

وروي: كانت المائدة سفرة حمراء تحتها غمامة وفوقها غمامة وهم ينظرون إليها تنزل حتى سقطت بين أيديهم؛ فبكى عيسى؛ وقال: اللهم اجعلني من الشاكرين، اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها مثلة ولا عقوبة. واليهود ينظرون إلى شيء لم يروا مثله ولم يجدوا ريحا أطيب من ريحها.[2]

ذكر وفاة عيسى ورفعه:

قال الله تعالى: {يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا}**آل عمران54. قال ابن عباس:** لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء؛ خرج على أصحابه، وفي البيت اثنا عشر رجلا منهم -الحواريون- فخرج عليهم من عين في البيت، ورأسه يقطر ماء؛ فقال: إن منكم من يكفر بي اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن بي. ثم قال: أيكم يلقي عليه شبهي فيقتل مكاني، ويكون معي في درجتي؟ فقام شاب من أحدثهم سنا؛ فقال له: اجلس. ثم أعاد عليهم؛ فقام الشاب؛ فقال: اجلس. ثم أعاد عليهم؛ فقام الشاب؛ فقال: أنا. فقال: أنت هو ذاك. فأُلقي عليه شبه عيسى، ورفع عيسى من روزنة في البيت إلى السماء. قال: وجاء الطلب من اليهود، فأخذوا الشبيه فقتلوه

==

1: ابن كثير- 491/2

2: ابن الأثير- 243/1

ثم صلبوه، فكفر به بعضهم اثنتى عشرة مرة بعد أن آمن به، وافترقوا ثلاث فرق، فقالت طائفة: كان الله فينا ما شاء، ثم صعد إلى السماء، وهؤلاء هم اليعقوبية، وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء الله، ثم رفعه الله إليه. وهؤلاء هم النسطورية، وقالت فرقة: كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله، ثم رفعه إليه، وهؤلاء المسلمون، فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها، فلم يزل الإسلام طامسا حتى بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم؛ **قال ابن عباس: وذلك قوله تعالى:** {فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين}**الصف14.**[1]

وروي: أن الذي دلهم على عيسى أحد حواريه؛ وأعطوه ثلاثين درهما؛ فأتى معهم إلى البيت الذي فيه المسيح فدخله فرفع الله المسيح وألقى شبهه على الذي دلهم عليه، فأخذوه وأوثقوه وقادوه؛ وهم يقولون له: أنت كنت تحيي الموتى وتفعل كذا وكذا، فهلا تنجي نفسك. وهو يقول: أنا الذي دللتكم عليه، فلم يصغوا إلى قوله ووصلوا به إلى الخشبة وصلبوه عليها.[2] **وروي:** أن الذي شبه بعيسى وصلب مكانه رجل إسرائيلي؛ يقال له: أيشوع بن فنديرا.[3]

واختلف العلماء في موته قبل رفعه إلى السماء؛ فقيل: رفع ولم يمت. **وقيل:** توفاه الله ثلاث ساعات ثم أحياه ورفعه.[4]

قال الحسن البصري: كان عمر عيسى عليه السلام يوم رفع أربعا وثلاثين سنة. **وعن سعيد بن المسيب؛ أنه قال:** رفع عيسى وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة.[5] **وروي:** أن اليهود لما صلبوا ذلك الرجل؛ ثم ألقوه بخشبته جعلوا مكانه مطرحا للقمامة والنجاسة وجيف الميتات والقاذورات؛ فلم يزل كذلك حتى كان في زمان قسطنطين بن قسطس باني القسطنطينية في القرن الرابع الميلادي؛ فعمدت أمه هيلانة الحرّانية الفندقانية فاستخرجته من هنالك معتقدة أنه المسيح، ووجدوا الخشبة التي صلب عليها المصلوب؛ فذكروا أنه ما مسها ذو عاهة إلا عوفي. فالله أعلم أكان هذا أم لا؟ وهل كان هذا؛ لأن ذلك الرجل الذي بذل نفسه كان رجلا صالحا؛ أو كان هذا محنة وفتنة لأمة النصارى في ذلك اليوم؟ حتى عظموا تلك الخشبة وغشوها بالذهب واللآلئ، وأطلقوا عليها اسم: صليب الصلبوت. ومن ثم اتخذوا الصلبانات، وتبركوا بشكلها وقبلوها لعنهم

==

1: ابن كثير- 2/509-510

2: ابن الأثير- 1/245

3: الطبري- 1/203

4: ابن الأثير- 1/244

5: ابن كثير- 2/515

الله، وأمرت أم الملك هيلانة فأزيلت تلك القمامة وبني مكانها كنيسة هائلة مزخرفة بأنواع الزينة. فهي هذه المشهورة اليوم ببلد بيت المقدس؛ التي يقال لها: القمامة. باعتبار ما كان عندها، ويسمونها القيامة، يعنون التي يقوم جسد المسيح منها. ثم أمرت هيلانة بأن توضع قمامة البلد، وكناسته وقاذوراته على الصخرة التي هي قبلة اليهود؛ فلم تزل كذلك حتى فتح عمر بن الخطاب رضي الله عنه بيت المقدس، فكنس عنها بردائه وطهرها من الأخباث والأنجاس.(1)

نزول عيسى في آخر الزمان:

نحن المسلمون نعلم علم اليقين أن الله تعالى سينزل نبي الله عيسى في آخر الزمان ليقتل مسيح الضلالة؛ المسيح الدجال؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليس بيني وبينه نبي -يعني عيسى- وإنه نازل؛ فإذا رأيتموه فاعرفوه؛ رجل مربوع إلى الحمرة والبياض؛ بين ممصرتين (الممصرة من الثياب: التي فيها صفرة خفيفة)؛ كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل؛ فيقاتل الناس على الإسلام؛ فيدق الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية، ويهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام، ويهلك المسيح الدجال؛ فيمكث في الأرض أربعين سنة؛ ثم يتوفى فيصلي عليه المسلمون.(2)

وهو ما قاله تعالى: {وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته}**الزخرف61.** فهو ينزل على المنارة البيضاء بدمشق؛ وقد أقيمت صلاة الصبح، فيقول له إمام المسلمين: تقدم يا روح الله فصلّ. فيقول: لا، بعضكم على بعض أمراء، تكرمة الله هذه الأمة. ثم يركب ومعه المسلمون في طلب المسيح الدجال؛ فيلحقه عند باب لُدّ؛ فيقتله بيده الكريمة.. وأنه يحج من فج الروحاء، حاجا أو معتمرا أو لثنتيهما، ويقيم أربعين سنة ثم يموت فيدفن فيما قيل: في الحجرة النبوية عند رسول الله صلي الله عليه وسلم وصاحبيه.(3) **وروي:** أن الفترة ما بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم ستمائة سنة. وقيل: خمسمائة وستون سنة. وقيل: خمسمائة وأربعون سنة. وقيل: أربعمائة وبضع وثلاثون سنة. **قال ابن كثير:** والمشهور ستمائة سنة. ومنهم من يقول: ستمائة وعشرون سنة بالقمرية فتكون ستمائة بالشمسية. والله أعلم.(4)

==

1: ابن كثير- 2/517-518

2: خرجه أبو داود عن أبي هريرة وصححه الألباني- 4/117

3: ابن كثير- 2/526-527

4: ابن كثير- 2/528

وروي: أن عيسى عليه السلام قبل أن يرفع وصى الحواريين بأن يدعوا الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وعين كل واحد منهم إلى طائفة من الناس في إقليم من الأقاليم من الشام، والمشرق، وبلاد المغرب، فذكروا أنه أصبح كل إنسان منهم يتكلم بلغة الذين أرسله المسيح إليهم. وذكر غير واحد أن الأنجيل نقله عنه أربعة: لوقا ومتى ومرقس ويوحنا. وبين هذه الأناجيل الأربعة تفاوت كثير بالنسبة إلى كل نسخة ونسخة، وزيادات كثيرة ونقص بالنسبة إلى الأخري، وهؤلاء الأربعة منهم اثنان ممن أدرك المسيح ورآه؛ وهما متى ويوحنا. ومنهم اثنان أصحاب أصحابه. والله أعلم. وهما مرقس ولوقا.[1]

تم في الإسكندرية 2007/9/17

==

1: ابن كثير- 528/2

فهرس أهل القرى